
روايات مصرية للجيب
زهور
112
غادة الدويقة
Looloo
www.dvd4arab.com
فوزي عوض

هذه السلسلة

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ...

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفواح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ؛ فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا .

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال الشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

الفصل الأول

فجأة دوّى زئير الجبل العتيق قاطعًا هدأة الصباح الرمضانى الجليل !!

فى حضن الجبل العتيق كان ملاك النوم يفرد جناحيه الهائلين الحنونين فوق بضعة آلاف من كادحين أهلكتهم أشرس حرب تشهدها المحروسة فى تاريخها .. حرب لقمة العيش .. حرب جعلت الكثير من هؤلاء المساكين ـ من فرط إجهادهم ـ يعجزون حتىٰ عن تناول سحورهم الذى كابدوا طوال النهار كى يأتون به ، وجعلت ملاك النوم يسرع باحتوائهم فى حضنه بكل ما فى قلبه من حنو ، فما كان منهم إلا أنهم أسلموا له أنفسهم آمنين ، تمامًا مثلما أسلموها للجبل العتيق الذى ربطتهم به عشرة عمر ، حتى صاروا وكأنهم فلذات كبده الذين لا وطن لهم ولا ملاذ إلا حضنه ، ولكنهم مثل كل الأبناء ، ما كانوا يدرون بمعاناة الجبل الأب مما يجرى فوق قمته من سفه وفُحش ، وعدم إحساس بفلذات كبده المطحونين فى سفحه ، وما كانوا يدرون بأن ذلك قد بدأ يلتهم صبره ، وينخر فى قوة احتماله ، حتى نفد رصيده من الصبر والتماسك ، فكان انفجاره ..

وكان زئيره ..

وكان قذفه بهذه الكتلة الرهيبة من جسده دون أن ينتبه إلى أن من قذفهم بها ليسوا سوى فلذات كبده المساكين النائمين فى أمان الله وأمنه !!

* * *

فى لحظات تحولت « الدويقة » إلى ما يشبه أرض المحشر .. صراخ ، وعويل ، وذهول ، وهرولة ، وركض ، وسيارات إسعاف ، وأوناش ، ومعدات ثقيلة ، وقوات من الشرطة والجيش ، ومسئولين ، وأهالى ، وفزع رهيب ما خطر على قلب بشر .. ففى غمضة عين اختفت تمامًا ثلاثةشوارع كاملة بمبانيها وساكنيها تحت صخرة عملاقة ، تزيد على المائة طن ، سقطت من أعلى حافة « المقطم » ، لتدك الشوارع الثلاثة دكًا فى ضربة واحدة ، ولتستقر جاثمة فوق الديار والأرواح بمنتهى الجبروت والقسوة ، فى منظر رهيب لا يكاد يستوعبه عقل .

وفى قلب هذا الخضم البشرى المتلاطم وقف (محمد فهيم) تكاد عيناه تنفجران جحوظًا ، وهو يحدّق مصعوقًا فى الصخرة المفزعة ، وبدا واضحًا أن عقله يوشك أن يغادره إلى خواء الجنون من هول الصدمة والمنظر ، وأن بداخله صرخة مكتومة ، لو انطلقت منه لصرعته فى مكانه توًا ، فأسفل هذه

الصخرة توجد (شيماء) .. حبيبته التى تشاطره الروح والعقل والفؤاد ، والتى بها سر وجوده ، ومسرى نبضاته ، وجناديل فرحته ، وبساتين أحلامه !!

حبيبته المختزلة فيها حياته !!

حبيبته المدفونة هنا !!

هنا تحت هذه الصخرة اللعينة !!

هاهو يكاد يحرق الصخرة بعينيه الجاحظتين المشتعلتين جنونًا ، وهو يردد ، غير مصدّق ، ولا مستوعب :

ـ مستحيل ! مستحيل !

وهاهى غمغمته الذاهلة تنقلب صرخات داخلية مدوية ، ظنها من فرط ذهوله تبلغ مسامع حبيبته تحت الصخرة :

ـ لا يا (شيماء) .. لا يا حبيبتى .. لا تفعليها .. لا تضيعى منى هكذا .. كيف أهون عليك يا حبيبتى ؟! كيف أهون عليك؟! هيا تعالى معى يا حبيبتى .. هيا تعالى معى إلى شقتك .. نعم يا (شيماء) شقتك .. شقتك باسمك .. أجمل شقة فى مدينة «العبور» .. شقة تطل على الحدائق والورود من كل ناحية ، وأثاثها وديكورها كله تفوح منه رائحة (شيماء) ، وسحر

(شيماء) ، وشقاوة (شيماء) .. هيّا نذهب إليها يا حبيبتى .. هيا أخرجى من تحت هذه الصخرة اللعينة لنذهب إليها معًا .. أتذكرين يا (شيماء) ؟ أتذكرين يوم أن كُسرت قدمى ؟ أتذكرين بماذا شعرت يومها ؟ كدت تجنين .. لم تحتملى يومها كسر قدمى وأنا الغريب عنك ، فكيف يهون عليك الآن كسر قلبى وأنا حبيبك ؟! كيف يا (شيماء) ؟ كيف يا حبيبتى ؟! كيف ؟!

وإذا بصرخة الفتى تنطلق من غياهب أعماقه هادرة مجنونة كالرعد الذى تحتمله سماء :

- (شيماااااااااااااااااااااء) .

ولم تكن صرخته هذه سوى ذروة المأساة ، التى بدأت بذورها فى الإنبات من ذلك اليوم الذى يعنيه .. يوم لقائه الأول بحبيبته المدفونة تحت الصخرة !!

★ ★ ★

الفصل الثانى

رفعت (شيماء) عينيها عن شاشة الكمبيوتر الذى يعتلى مكتبها المتواضع بمدخل ورشة الرخام والجرانيت التى تتوسط آخر شوارع « الدويقة » من ناحية المقطم لتنظر إلى ذلك الذى دلف من باب الورشة متهاديًا فى خطوته ، ووقف أمامها صامتًا مسلطًا عينيه عليها بنظرة شقاوة جريئة أثارت حفيظتها ، وجعلتها تسأله فى حدة متعمدة :

أيتها خدمة ؟

وإذا برد الشاب بنية وقحة :

- نفسى فى قطعة مرمر .

لم تَفاجأ بنت السوق ، فثلاث سنوات فى مكانها هذا جعلتها تعتاد ذلك وأكثر منه ، وعلمتها كيف تذوده عن نفسها ، فكان ردها على الشاب بزفرة إنذار :

- يا فتاح يا عليم !

ولكن الشاب لم يتراجع ، بل مضى فى مشاكسته لها ، وكأن زفرتها نفخت فى شقاوته ، فزادتها اشتعالاً :

ـ ماذا أيتها المرمرية ؟ هل قلت شيئًا خطأ ؟ ألا تبيعون الرخام؟

كظمت غيظها :

ـ نبيعه يا عمنا .

ـ وأليس المرمر نوعًا من الرخام ؟

أدركت الفتاة أنها أمام حالة مستعصية لا فرامل لها ، فتحركت حنكتها .. مالت بذقنها فوق يدها المتعامدة على المكتب ، رافعة عينيها إليه بنظرة محذِّرة ، ومتسائلة بنبرة أشد تحذيرًا :

ـ ها ؟ ثم ماذا ياعم الشقى ؟

وإذا برد الشاب أن جلس أمامها مبتسمًا ، ومقتربًا بوجهه من وجهها ، ومرسلاً بنظراته الشقية إلى أعماق عينيها .

قائلاً :

ـ (محمد) .. اسمى (محمد) .. (ميدو) .. فنصف بنات «مصر» تدلعنى بـ (ميدو) .. قولى ورائى : (ميدو) .. (ميدو) .

كادت تنفلت ابتسامة الفتاة من شفتيها ، لولا مسارعتها بالقبض على شكيمتها، وكعادتها حين يثير أمرما توترها ،

وضعت إبهامها بين أسنانها ، وراحت تعض عليه غيظًا من هذا المارق ، الذى يوشك أن يقتحمها بسحر شقاوته ، ومن بين أسنانها وإبهامها وجدت نفسها تسأله :

ـ ماذا تريد يا عم (ميدو) ؟

ـ أخبرتك أيتها المرمرية .. أريد قطعة مرمر أصلية .

ـ تفضل معى لأريك ما تريد .

جواب لم يأته من الفتاة ، بل من عملاق مخيف أشبه بوحوش المصارعة الحرة ، انشقت عنه الأرض فجأة ، لتصطدم به عينا (ميدو) ، ولتختفى منهما على الفور لمعة الشقاوة وهما معلقتان بعينى الوحش المتحفِّز ، وليجد (ميدو) نفسه يزدرد ريقه بصعوبة ، ثم ينهض ماضيًا معه دون أن ينبس ببنت شفة ، بينما ابتسامة (شيماء) ترتسم على شفتيها وهى تشيعه بنظرة شماتة ، حتى انحرف به العملاق عن عينيها ، فعادت تضرب بأصابعها الرقيقة على « الكيبورد » مسجِّلة بيانات الفواتير التى أمامها على المكتب ، ولكن ماهى إلا لحظة ، حتى كانت أصابعها تتجمد على مفاتيح « الكيبورد » فزعًا ، فقد دوّت صرخة ألم مروِّعة من داخل الورشة ، جعلت الفتاة تنتفض راكضة صوب الصوت ، فإذا بـ (ميدو) مكوّمًا فوق الأرض وقد جثم فوق ساقه اليمنى

لوح من الرخام يزيد وزنه على المائتى كيلوجرام راح العملاق وعمال الورشة يتكاتفون فى رفعه عن الساق ، وانفلتت صرخة (شيماء) وهى تضرب صدرها بيدها فزعًا :

ـ يا نهار أسود ! ماهذا ؟!

وأسرعت تشارك العمال فى رفع الرخامة ، بينما صراخ (ميدو) المتواصل يشق قلبها ، وبمنتهى الصعوبة زُحزحت الرخامة عن ساقه ، لترتمى (شيماء) فوقه وهى تصرخ فى العمال :

ـ هيا احملوه معى .. هيا .

وصاح أحد العمال فى حيرة وهم يرفعونه عن الأرض .

ـ إلى أين يا (شيماء) ؟

ـ إلى المستشفى يا بنى آدم .. بسرعة .

وبسيارة الورشة النصف نقل انطلقت الفتاة وعمالها إلى المستشفى .. لحظات وكان أطباء العظام والأشعة بالمستشفى يمددونه فوق جهاز الأشعة ، لتخرج لهم صورة الأشعة كاشفة عن كسرين فى مشط القدم وأعلى الكاحل ، وليبدأ أطباء العظام

على الفور فى تجبيسه بعدما حقنوه بمسكن قوى للألم ، كل ذلك و (شيماء) معه ممسكة بيده بمنتهى الحنو ، ومحاولة مداعبته كى يتوه عن آلامه ، بينما قلبها بداخلها يتمزّق عليه ، حتى فرغ الطبيب من تجبيسه ، فمضى إلى مكتبه ، حيث جلس يدوّن أدويته ، حتى إذا ما فرغ ، رفع عينيه إلى (شيماء) الواقفة أمامه مع العمال متسائلاً :

ـ هل أنت قريبته ؟

وفوجئت (شيماء) بالسؤال ، ووجدت نفسها تلتفت إلى العمال فى حيرة ، فإذا بالعملاق يجيب الطبيب قائلاً :

ـ نعم يا دكتور .. كلنا أقاربه .

فعاد الطبيب يخاطب الفتاة ، وهو يناولها تذكرة الدواء :

ـ سيظل ساقه فى الجبس 45 يومًا ، لا يغادر الفراش خلالها .. وسيتناول هذه الأدوية فى مواعيدها بانتظام ، مع الامتناع تمامًا عن تناول أية أطعمة مالحة .. مفهوم ؟

وجاءه رد الفتاة فى وقار :

ـ مفهوم يا دكتور .. شكرًا لحضرتك .

ـ الشكر لله .. مع السلامة .

وارتدّت (شيماء) بفريقها إلى (ميدو) المدد فوق شازلونج التجبيس ، لتبادره مداعبة بابتسامة حلوة :

ـ هيا يا بطل !

وبمنتهى الرفق والحنو التف العمال حوله متكاتفين فى حمله .. أمام المستشفى فوجئ بهم (ميدو) يتجهون به إلى السيارة البيك‌آب المغبّرَة بآثار خامات الورشة ، فأسرع يسألهم فى دهشة :

ـ ماذا ستفعلون ؟!

وجاءه الرد من العملاق الذى يحمل نصفه العلوى فوق ذراعيه وهو يشير بذقنه إلى السيارة :

ـ سنضعك فى (عزيزة) هذه .

انفلتت هتفة (ميدو) فى امتعاض :

ـ هذه ؟!

وكان رد (شيماء) باسمة ، وهى تشير إلى جواره :

ـ هذه هى التى أسعفتك .

ـ سيارتى عندكم فى « الدويقة » .

وجاءته مداعبة العملاق :

ـ هل تريد أن نتركك هنا فوق الرصيف حتى نأتيك بها ؟

وكان رد الفتى بسرعة وحسم ، وكأنه يأمرهم :

ـ بل تذهبون بى إليها .

ولم تتمالك (شيماء) ابتسامتها .

مداعبة :

ـ كسر وعنطزة .

وكان تساؤل الفتى :

ـ أتعايريننى أيتها المرمرية ؟

وجاءه رد الفتاة بابتسامتها الحلوة :

ـ أسكت !

وصعدت إلى صندوق السيارة ، وجلست متلقية رأس الفتى على صدرها ، بينما جلس العملاق قبالتها محتضنا ساقه المكسورة حتى لا ترتج مع سير السيارة فتؤلمه ، ومن حولهم جلس بقية العمال ، لتبدأ السيارة تحركها ، بينما (شيماء) تهتف فى السائق :

- واحدة واحدة يا عم (جابر) .

وإذا بشقاوة (ميدو) تتحرك :

- أتخافين على أيتها المرمرية ؟

ولم تتمالك (شيماء) دهشتها :

- حتى وأنت مكسور ؟!

وجاءها الجواب من العملاق .

مبتسمًا :

- يموت الزمار ..

وانتبه إليه (ميدو) ، فالتفت إليه متسائلاً :

- ما اسمك أيها الوحش الأمازونى ؟

- عصفور .

وكادت ضحكة (ميدو) تنطلق من قلبه لولا أنها تحولت إلى آهة ألم قبل أن تخرج من بين شفتيه بسبب اهتزاز ساقه ، مما جعل الفتاة تنصحه مشفقة :

- ارحم نفسك يا (ميدو) .

وإذا بهتفة (ميدو) ، وقد أوشك على الانتقاض واقفًا :

- اللـــاااااااه .. أحلى أحلى أحلى (ميدو) سمعتها فى حياتى .

ولم تملك (شيماء) إلا أن تبتسم عجبًا مرددة :

- لا فائدة .

وبلغوا « الدويقة » .

ومن البيك آب إلى « الدايو البومة » ، والتى كانت تقف على « الأوتستوراد » ، حيث مددوه بالمقعد الخلفى لها ، موسدين رأسه صدر (شيماء) ، وجلس (عصفور) بالمقعد الأمامى ، بينما جلس (جابر) إلى مقعد القيادة ، متناولاً مفاتيح السيارة من (ميدو) .. وضع أحدها فى « الكونتاكت » وأداره ، ولكن المحرك لم يدر .. عاد يحاول مرة أخرى ، ولكن دون جدوى ، مما جعل (ميدو) ، يتساءل :

- ما الحكاية يا عم (جابر) ؟

وأجابه (جابر) وهو ينزل من السيارة :

- لا أعرف يا باشا .. سأنزل لأرى .

ورفع (جابر) كبوت السيارة ، فإذا بعينيه تجحظان ، مغمغمًا فى ذهول :

ـ يا أولاد الكلب !!

لم يكن هناك محرك .. حوض السيارة خاو تمامًا ، كبطن نُزعت أحشاؤه .. أسرع يرتد إلى نافذة السيارة ، ناقلاً بصره الذاهل بين (ميدو) و (شيماء) و (عصفور) ، مما جعل (شيماء) تسأله فى دهشة :

ـ ماذا حدث يا عم (جابر) ؟

ـ سرقوا الموتور .

ابتسم (ميدو) :

ـ هذا ليس وقت مزاح يا عم (جابر) .

وكان رد (جابر) بذهوله :

ـ أنا لا أمزح يا باشا .

وضربت الدهشة (ميدو) :

ـ لا تمزح ؟! ماذا تقصد؟

يا رجل ؟!

ـ سرقوا الموتور يا باشا .

أسرع (ميدو) يحدّق فى (شيماء) بذهوله ، فإذا بها تكتم ضحكتها بيدها .. انطلقت صرخته :

ـ أتضحكين ؟!

وإذا ردها ضاحكة :

ـ لا تندهش هكذا .. لو وقعت أنت نفسك فى أيديهم لباعوك قطع غيار .

كاد الذهول يعصف بعقل (ميدو) ، ووجد نفسه يغمغم بذهوله .

ـ ما هذا ؟! هل نحن فى « شيكاغو » ؟!

ـ لا يا جنتل ، نحن فى « الدويقة » .

هكذا جاءه رد الفتاة متبسّمة ، فلم يملك هو إلا أن يتساءل بذهوله :

ـ والعمل الآن ؟!

التفتت (شيماء) إلى (جابر) :

ـ تاكسى يا عم (جابر) .

وانطلق بهم التاكسى ، بينما (ميدو) بينهم مضروبًا بذهوله ، وليس على لسانه سوى سؤال واحد :

ـ الموتور ؟! يفكّون الموتور من السيارة فى عز النهار ؟

وظل يرددها ، حتى ملت (شيماء) ، فابتسمت قائلة له :

ـ دماغك يا عمنا .

وكان رده بجم ذهوله .

ـ وأين هى دماغى ؟! فكت هى الأخرى !! فكوها الدويقيون !!

وإذا بـ (عصفور) يبتسم ، قائلا له :

ـ لا ، هذا كثير عليك يا باشا .. تعود إلى بيتكم بدون قدمك وموتورك ودماغك ؟!

وانفجرت (شيماء) ضاحكة ..

وبلغوا فيلا الأسرة بحى « الياسمين » ، أحدث أحياء الصفوة التى تعتلى « المقطم » لم يكن بالفيلا سوى « باسم » شقيق (ميدو) الوحيد ، الذى احتفل بعيد ميلاده الرابع عشر منذ يومين فقط ، والذى ما أن شاهد شقيقه مجبرًا ، ومحمولاً على أيدى الرجلين ، حتى هرع إليه جريًا ، وهو يهتف فى فزع :

ـ (ميدو) ! (ميدو) ! ماذا حدث يا (ميدو) ؟!

ماذا حدث ؟

وجاءه رد (ميدو) محاولاً طمأنته وتهدئته :

ـ لا شىء يا (بسبوسة) .. لا شىء .. قطعة رخام لم تحتمل سحرى فارتمت فوق قدمى .

كادت ضحكة (شيماء) تنفجر من قلبها لولا أنها سارعت بكتم فمهما بيدها ، فى حين جاء سؤال العملاق للفتى العجيب :

ـ أين ستستريح يا باشا ؟!

هم الفتى بأن يجيبه ، فإذا بخادمتى الفيلا تقبلان جريًا ليضربهما الفزع بمجرد وقوع عيونهما على سيدهما مجبرًا محمولاً ، ولكن قبل أن تنطقا بحرف كان الفتى يقول لهما :

ـ غرفتى يا بنات .

فما كان من الخادمتين الشابتين إلا أنهما انطلقتا تقودان الرجلين اللذين يحملانه إلى غرفته بالطابق العلوى ، بينما (شيماء) خلفهم تتراقص ابتسامتها فوق شفتيها ، فقد أدركت منبع شقاوة هذا الـ (ميدو) التى لا حل لها .. إنها الحياة المخملية التى تشبه المياه المعدنية المصفاة من كافة الشوائب .. ونظرة واحدة على فيلته وفخامتها تكفى ناظرها لأن يدرك مدى نعومة حياته ، وهو ما أدركته بنت « الدويقة » ، ليس فقط من فخامة ورفاهية المكان ، بل أيضًا من لهفة خادمتيه الطاغية عليه ،

اللتين لا تقلان جمالاً عنها .. وجدت نفسها تتأمله بنظرة تعجَب باسمة حتى استقر فى فراشه ، فراحت تبادره قائلة بعينيها اللامعتين بإعجابها وتبسمها :

ـ ألف سلامة يا باشا .

فكان رد (ميدو) سريعًا :

ـ ماذا تعنين أيتها المرمرية ؟! هل تنوين الانصراف ؟!

اتسعت ابتسامة الفتاة :

ـ ماذا تريد أنت يا برنس ؟! هل تنوى احتجازنا هنا ؟

ـ بل أنوى استضافتكما .

ـ حينما تقوم بالسلامة إن شاء اللّه .

ـ بل الآن .

ـ أهذا أمر ؟!

ـ بل رجاء .

حلَقت على وجهه بنظرة متأمَلة ، ثم أجابته :

ـ الورشة مغلقة .. هل يهون عليك غلقها ؟

وكان رد الفتى سريعًا ، وبإنسانية مفرطة :

ـ لا طبعًا .. هيا افتحوها بسرعة .

فوجئت الفتاة بإنسانيته التى تبدَت على محيَاه وفى نبرته .. وجدت نفسها تسرح بعينيها على وجهه فى تأمل حائر .. أيتَهما الغالبة فى طبعه ؟ صفاقة بينته التى غمرها بها صباحًا ؟ أم إنسانيته هذه التى تفوح من محياه ونبرته ؟ انتبهت من تساؤلها الحائر على تساؤله :

ـ أمعك موبايل ؟

ـ نعم .

ـ هاتيه .

ناولته له ، فإذا به يسجل رقمه عليه ويرن على نفسه ، ثم يرفع عينيه الباسمتين إليها قائلاً :

ـ مؤكد إجازتك الأحد .. ومؤكد أنك تعلمين أن زيارة المريض واجب .. والتاريخ يقول أن المرمريين الأصليين لا يفوتهم واجب ، لذلك أنا فى انتظارك يوم الأحد أيتها المرمرية الأصلية .

لم تملك الفتاة إلا التبسم ، قائلة :

ـ ربنا يسهل .

ومدت يدها متناولة منه الموبايل ، ومردفة :

ـ عن إذنك .

ثم التفتت إلى (باسم) واضعة قبلة حانية على خده ، وقائلة :

ـ سلام يا (بسبوسة) .

ـ سلام يا جميل .

وتلألأت ابتسامة الفتاة على شفتيها وهى تتأمل الطفل الجميل بنظرة باسمة ، استدارت بعدها منصرفة برجالها ، ولكنها قبل أن تخرج من باب الغرفة ، وجدت نفسها تلتفت إلى (ميدو) ، قائلة له بابتسامتها الحلوة وبمنتهى الرقة :

ـ ألف سلامة مرة أخرى يا عم الشقى .

ومضت منصرفة تاركة ابتسامة الفتى تضىء وجهه الخمرى وعينيه العسليتين .

* * *

الفصل الثالث

فى أقل من ساعة من اتصال (باسم) بوالديه ، كان الاثنان يقتحمان غرفة (ميدو) فى هلع ، وكانت أمه الدكتورة (لميس الجوهرى) تقفز إلى جواره فى الفراش ، هاتفة به مذعورة :

ـ (ميدو) .. (ميدو) .. ماذا حدث يا (ميدو) ؟ ماذا حدث يا حبيبى ؟

بينما أسرع أبوه (إبراهيم فهيم) الصحفى الشهير بالجلوس إلى جواره بالناحية الأخرى ، ممسكًا بيده ، وهو يناديه فى فزع :

ـ (ميدو) .. رد علينا يا (ميدو) .. ماذا حدث يا حبيبى؟ ماذا حدث ؟

ولأن (ميدو) كان يغط فى نومه بتأثير المسكنات والمهدئات القوية التى تناولها ، فقد جاءهما الجواب من (باسم) الجالس عند قدميه فى الفراش :

ـ (ميدو) بخير يا ماما .. بخير يا بابا .

واستيقظ (ميدو) على ضجتهما ، ليجدهما معتليين الفراش من حوله ، وهما يقلبان فيه بمنتهى القلق والجزع . فأسرع يطمئنهما :

ـ أنا بخير يا بابا .. اطمئنى يا ماما .. أنا بخير ..

ولكن الدكتورة (لميس) بطبيعتها الموسوسة العصبية ما كانت لتطمئن أو تأخذ بكلامه ، أسرعت تطلب صديق العائلة الدكتور (على السمرى) طبيب العظام الشهير بالموبايل ، راجيته أن يأتيها بأسرع ما يمكنه ، بينما ظل (إبراهيم فهيم) ممسكًا بيد ابنه ، مرددًا بقلقه العاصف :

ـ ستكون بخير يا (ميدو) .. ستكون بخير .

وكان رد (ميدو) مستنكرًا قلقهما المبالغ فيه :

ـ يا بابا أنا فعلًا بخير .. والأمر لا يحتاج إلى كل هذا القلق .. إنه مجرد كسر بسيط .

استفز استنكاره الدكتورة ، فكان انفجارها فيه بعصبيتها كالعادة :

ـ وهل هناك كسر بسيط وكسر معقد يا واجع قلبى دائمًا مثل أبيك ؟ ولماذا تفعل هذا دائمًا بنفسك وبنا ؟ لماذا تذهب إلى مكان حقير كهذا ؟! لماذا ؟

ـ يا ماما إنها أقرب ورشة رخام .

ـ أقرب ؟! وهل تفرق معنا أقرب من أبعد ؟ أليس لدينا ربع دستة سيارات كل منها أحدث من الأخرى ؟ أليس لدينا تليفونات ؟ أليس لدينا خدم ؟

واختنق (ميدو) :

ـ يا ماما .. يا ماما تليفونات ماذا ؟ وخدم ماذا ؟ إنه رخام .. رخام .. أى أطنان وأصناف أختار من بينها ، فهل كلما احتجت إلى قطعة رخام نصف متر أطلب إحضار أطنان وأصناف إلى هنا كى اختار منها القطعة التى أريدها ؟! هل يُعقل هذا ؟!

وكان رد الدكتورة بكل سخرية :

ـ لا طبعًا ، لا يُعقل هذا يا حضرة المحترم ، إنما يُعقل أن يدخل ابن قصور المقطم « الدويقة » أحط بقعة على أرض « مصر » !

انفلتت هتفة (ميدو) بمنتهى الانفعال والاستنكار ، حتى بدا وكأنه يحاول القفز من رقاده :

ـ لا يا ماما من فضلك .. لا تقولى هذا .. « الدويقة » قطعة من « مصر » .. حى مصرى مثل أى حى مصرى آخر .. والذين فيه مصريون تمامًا مثلى ومثل حضرتك ، بل ربما كان من بينهم من هم أشرف من سكان قصور « المقطم » الذين تتباهين بهم .

ـ اخرس !!

هكذا جاءته صرخة الدكتورة ، وليتها اكتفت بها ، بل انحنت فوقه مردفة ، وهى توشك على الانفجار كمدًا :

ـ اخرس يا متخلف ! من يومك و « الرمرمة » فى دمك .. مرة تصادق من « المطرية » .. ومرة تفتح ورشة فى « الهجانة » .. فماذا تنوى أن تفعل هذه المرة فى « الدويقة » ؟

ـ أنوى أن أتزوج منها .

هكذا جاءتها القذيفة الخاطفة من الفتى بابتسامة وبمنتهى البرود ، ولم تكن سوى مزحة منه ، أراد بها أن يداعبها ، كى يرحمها من عصبيتها ، فإذا بجوابها وهى تغرس فى عينيه نظرة مفزعة ، تهدر جبروتًا رهيبًا :

ـ أقسم بالله كنت أدفنها حيّة أمام عينيك .... يا ابن الدكتورة « لميس الجوهرى » .

وصُعق الفتى .. ووجد نفسه يلتفت بذهوله إلى أبيه وشقيقه ، فإذا بعيونهما معلّقة بسقف الغرفة فى كمد ، وكأنهما يستغيثان بالسماء من هذا الجبروت .

* * *

بصدر منصة المؤتمر السنوى الرابع للتضامن الاجتماعى ، ووسط كوكبة من كبار المسئولين والناشطين الاجتماعيين جلست الدكتورة « لميس الجوهرى » مواصلة إلقاء خطبتها على الجمهور الغفير الذى تكتظ به قاعة المؤتمر :

ـ .... وهكذا يا سادة يتأكد لنا أن السبيل الوحيد الذى أمامنا للخروج من كافة أزماتنا الاجتماعية التى تحاصرنا بقسوة إلى حياة سعيدة نهنأ بها جميعًا كأبناء مجتمع واحد هو تفعيل روح التضامن بيننا ، تفعيل إحساسنا ببعضنا ، دحر الطبقية البغيضة التى باتت تهددنا بعودتها .. فنحن جميعًا مصريون ، أبناء وطن واحد لا فرق فيه بين أحدنا والآخر مهما اختلفت مواقعنا وظروفنا .. جميعنا لنا نفس الحقوق فى خيرات هذا الوطن لأننا جميعًا بنيناه معًا .. وأخيرًا جميعنا أخوة متساوون فى العزة والكرامة وحق العيش .. هكذا أوصتنا كافة الأديان السماوية .. وهكذا يجب أن نكون ....

ودوّت القاعة بالتصفيق ..

* * *

الفصل الرابع

مضت (شيماء) تجوس فى شقوق الثعابين الترابية القذرة .. إنها أزقة ودروب « الدويقة » التى تتلوى بين العشش والورش وتلال القمامة .. وهى مشوار (شيماء) اليومى عقب إنتهائها من عملها بالورشة فى التاسعة مساءً .. عتمة الطرقات التى تجعلها لاتبصر لمتر واحد أمامها لا تخيفها .. اعتادتها .. نباح «زنجر» القادم من بعد نبهها إلى انعقاد اجتماع عصابة شقيقها «أحمد» بالحوش المهجور الذى يتوسط طريقها الوحيد إلى المنزل .. اجتماع الكيف واقتسام السرقات ورزايا أخرى .. الكلب الطيب ينتابه القلق عليها حينما يكون هذا الاجتماع معقودًا أثناء مرورها ، لأنه يعلم ما يحدث معها ولكنه لا يستطيع منعه .. بمجرد ظهورها أمام الحوش حدث ما نبهها إليه « زنجر » .. قطع عليها « أحمد » الطريق مناديًا بحدته الإجرامية :

- (شيماء) !

توقفت الفتاة مرسلة بصرها فى جوف الظلام قرفًا منه .. إنه يكبرها بعامين حيث سيكمل الخامسة والعشرين من عمره الشهر

القادم ، وهو شقيقها الوحيد ، ومع ذلك لا تحمل له إلا كل قرف واحتقار ، لأنه معجون بالشر والفساد .. اقترب منها يسألها بلسانه الذى أثقلته المخدرات بأنواعها :

- ما الذى أخَرك حتى الآن ؟

التفتت إليه بمرارة :

- وهل تفرق معك يا « أحمد » ؟!

وانقلبت مرارتها إلى حدة :

- أين موتور السيارة ؟

- أى سيارة ؟

- السيارة النبيتى التى كانت تقف على الطريق .

- لا أعلم .. أنا كنت نائمًا طوال النهار .

- إنها سيارة زبون عندنا فى الورشة ، وإذا ما ..

أسرع يقاطعها :

- دعك من هذا وأخبرينى .. هل معك نقود ؟

رفعت أصبعيها فى وجهه بجنيه واحد :

- هذا هو كل ما معى .

تسمرت عيناه على عينيها بنظرة غيظ ، التفت بعدها إلى الكلب الذى كان يقف إلى جوارهما ، مسددًا ركلة فظيعة إلى بطنه ، وهو يقول له :

- كى تنبهها جيدًا يا روح أمك .

وتكوّم الكلب المسكين على الأرض لاهثًا لهاث الموت ، لترتمى عليه الفتاة ، صارخةً فى شقيقها :

- تنقطع رجلك يا (أحمد) يا ابن أمى وأبى .

كادت ركلة (أحمد) الثانية تكون من نصيبها هى ، لولا أن قدمه سقطت فى قبضة (عصفور) الذى انشقت عنه الأرض فجأة ، ليتسمر الاثنان فى مواجهة بعضها للحظة ، سحب بعدها (أحمد) قدمه من قبضة العملاق فى استسلام ، ليستدير عائدًا إلى عصابته ، بينما انحنى (عصفور) على الكلب رافعه فى حضنه ، قائلا لـ (شيماء) :

- هيا بنا .

تحركت معه الفتاة وعيناها على الكلب ، سائلة (عصفور) فى قلق :

- سيموت يا (عصفور) ؟

- لا سيكون بخير بإذن الله .. هو فقط محتاج يشرب بعض الماء .

- إذن أسرع بنا !

وانطلقا يحثّان الخطى ، حتى بلغا المنزل .. منزل سويسى من غرفة واحدة وحمام بلدى مقزز ، وحوش ترابى تتوسطه طلمبة ماء صدئة .. دلف (عصفور) بالكلب إلى الغرفة ، بينما هرولت (شيماء) إلى طلمبة الماء ، مختطفة دلو بلاستيك ملقى إلى جوارها .. ملأت نصفه بالماء ، وانطلقت به إلى الغرفة ، لتضعه أمام الكلب الذى اندفع يشرب منه بشراهة حتى وقف على قدميه يهز ذيله فى حيوية ، ليتهلل وجه (شيماء) ، مربتة عليه بفرحة :

- ألف سلامة يا وحش .

وإذا بالكلب ينظر إليها ممتنًا .. نظرة جعلت (سعيد عمر) يهز رأسه مرددًا :

- سبحانك يارب .. الكلب يتمر فيه عن البشر !

وإذا برد « كريمة » .

ـ وأكثر .

هنا فقط انتبهت (شيماء) إلى أبويها اللذين كانا يجلسان فوق الحصيرة البلاستيكية البالية التى يعود عمرها لأكثر من سبع سنوات ،وأمامها صينية الطعام البلاستيكية الكالحة والعجوز أيضًا مثل الحصيرة ، يعلوها عشاء متواضع لا يسمن ولا يغنى من جوع .. مجرد بواقى أرز وخضار من الأمس وبضعة أرغفة بلدى .. انتبهت الفتاة إلى أبويها ، فأسرعت تحييهما بآثار فرحتها :

ـ مساء الخير يا (سعدة) .. مساء الخير يا (كرم) .

ـ مساء النور .

جاءها الرد من (سعيد عمر) بصوته الضخم مثل جسده وملامحه ، وبجهامته التى لا تنفك أبدًا من فوق وجهه .. إنه فى الستين من عمره ، وضخامته هذه ماهى إلا منظر ، فقد التهم مرض جلدى غامض ساقه اليمنى بالكامل ، ولم يتركه إلا قعيدًا محطم النفسية من جراء عجزه .. أردف يسألها :

ـ ما الذى أخرك هكذا ؟

وكان جوابها ، وهى تهب واقفة :

ـ (عصفور) سيخبركما .

ومالت على (رزق) و (كريم) اللذين يغطان فى نومهما فى السرير الوحيد المتهالك .. إنهما طفلا شقيقتها الراحلة (هدى) التى ماتت فجأة العام الماضى ، قبل أن يتم عمر طفليها التوأمين الخامسة ، وقبل أن يمضى شهران على رحيلها ، كان زوجها قد اختفى تمامًا ، تاركًا طفليه بلا أم أو أب ، فإذا بـ (شيماء) تتحول إلى أم لهما بكل ما تحويه الأمومة من حب وحنو .. طبعت قبلتيها على خديهما ، وأحكمت غطاءهما ، ثم فتحت الدولاب المتهالك ، مستخرجة منه قطعة من ثيابها المنزلية ، ومضت بها مغادرة الغرفة ، وهى تقول لـ (عصفور) :

ـ لا تنصرف يا (عصفور) حتى نتعشى معًا .

وجاءها رد (عصفور) فى أدب ، وهو يشيعها بنظرة تفضح ما بداخله نحوها :

ـ حاضر .

أنه يموت فيها .. ولكنه يعلم جيدًا أنها ليست له .. يفصله عنها واحد وعشرون عامًا ، وجهله ، وضخامته الزائدة عن الحد ،

وصفات فتى أحلامها التى لا يملك منها سوى طيبة قلبه وحبه لها الذى يجرى فى عروقه .. انتبه على سؤال (كريمة) له :

ـ هل كان كسر الشاب كبيرًا يا (عصفور) ؟

دُهش (عصفور) :

ـ كيف علمتما ؟

ابتسمت ساخرة :

ـ وهل هناك شىء يُخفى فى « الدويقة » يا « عصفور » ؟! « الدويقة » كلها غرفة نوم واحدة .

شرع « عصفور » فى قص ما حدث ، بينما عادت « شيماء » مرتدية عباءة حمراء زاهية ذات فتحة مربعة كبيرة على صدرها .. حمرة العباءة انعكست على بشرتها المرمرية مشعلة فتنتها التى تحسدها عليها كل بنات ونسوة « الدويقة » .. عودها الأهيف بتضاريسه الأنثوية الساخنة يجعلها حلمًا عزيز المنال لكل شبابها .. فتنتها فى العباءة اختطفت « عصفور » من أبويها ، ولكنه سرعان ما انتبه لنفسه ، فأسرع يدفن نظراته فى الأرض حتى لا تفضحه ، وهو لا يدرى أن نظراته هذه لا تمثل شيئًا بجانب أشياء أخرى كثيرة تفضح حبه الجنونى لها .. خوفه الدائم عليها .. طاعته لها فى كل ما تطلبه ، حنوه عليها ، دفاعه عنها حتى فى

أخطائها .. وتكفى فقط حراسته لها كظلها ، فأينما احتاجت إليه انشقت عنه الأرض .. إذن فهو كتاب مفتوح ، وسطور غرامه المدوّنة فيه يحفظها الأبوان والفتاة نفسها عن ظهر قلب ، ولكنهم لا يملكون له شيئًا ، فحتى الفتاة تكاد فى أحيان كثيرة تخونها دموعها من جلال حبه هذا ، ولكن ماذا تفعل أمام قلبها الذى فتح له كل أبوابه عدا باب الغرام .. إنه حكم القلوب الذى لا يملك حتى أصحابها أنفسهم تبديله أو نقضه .. وجدت الفتاة نفسها تجلس قبالته حول صينية الطعام ، قائلة له بحميمية وابتسامة حلوة :

ـ هيا يا أجمل (عصفور) .. بسم الله .

وامتدت أيديهما إلى الطعام ، بينما عاد (سعيد عمر) يستأنف استفساره من (عصفور) عن بقية القصة الى قطعتها (شيماء) بدخولها :

ـ مؤكد والده رأس كبيرة مثل كل سكان « الياسمين » .

وكان جواب (عصفور) :

ـ صحفى .

دُهشت (شيماء) :

ـ كيف عرفت ؟!

ـ مكتوب على باب الفيللا .

انسابت ابتسامة (شيماء) وهى تُعلق اللقمة التى فى يدها أما شفتيها قائلة :

ـ وهل هذه فيللا ؟! إنها قصر من قصور ألف ليلة وليلة .. كل شىء فيه حكاية .

وانطلقت نظرتها بعيدًا ببريق ساحر ، وهى تردف حالمة :

ـ وأجمل حكاية فيه هى عم الشقى !

* * *

الفصل الخامس

تحولت غرفة (ميدو) فى الفيللا إلى مزار لا يخلو من زواره .. أفواج داخلة خارجة ، جميعها جاءت مهرولة تريد الاطمئنان عليه ، بينما هو مدرك جيدًا أن قليلهم ـ ومنهم أصدقاؤه ـ صادقون ، وغالبيتهم منافقون جاءت بهم مصالحهم لدى والدته المتحكمة فى كعكة وزارة التضامن الاجتماعى المحشوة بالمنح الأجنبية السخية ، ووالده الصحفى الحكومى الكبير الذى يمثل محور تلاقى للكثيرين من أباطرة الدولة فى المال والسياسة ، لذلك لم يجد الفتى خلاصًا من صداعهم الخانق سوى التظاهر بالنوم ، راجيًا والديه ألا يدخلا عليه أحدًا سوى صديقه « فلفل » الذى أخبره بأنه قادم فورًا فى الطريق بمجرد تلقيه الخبر منه تليفونيًا .. وبالفعل لم تمض سوى دقائق قليلة حتى كان « فلفل » يدخل عليه يسبقه قلقه العاصف الصادق :

ـ (ميدو) حبيبى .. ألف سلامة .. ألف ألف سلامة .. كيف حدث هذا يا (ميدو) ؟ كيف حدث ؟

وراح يحدّق فى ساق صديقه المجبّرة بألم صادق .. إنه مطراوى أصيل .. ابن تجار ألبان ، فلاحون يقطنون المطرية أبًا عن جد .. وربما كانوا الوحيدين فى القاهرة بأسرها الذين لا يغشون اللبن .. أمانتهم وفطرتهم الطيبة هى التى تمنعهم ، وما كان «فلفل» إلا نبتة صالحة منهم ، يحمل فى تكوينه كل موروثاتهم الإنسانية الطيبة ، ومن هنا كان حب (ميدو) له ، وارتباطه به الذى يثير حفيظة أمه بنت الأكابر .. طمأنه (ميدو) عليه طالبًا منه إغلاق باب الغرفة عليهما ، وإشعال سيجارتين لهما .. فعل الصديق الطيب ، فراح (ميدو) يشد نفسًا طويلاً من سيجارته ، وهو يرقد على ظهره مرسلاً دخانه ومعه نظراته إلى سقف الغرفة فى شرود تام ، بينما عاد (فلفل) يسأله فى قلق :

ـ ما الذى حدث يا صديقى ؟

وكان رد (ميدو) بمنتهى الهدوء دون أن يزحزح عينيه عن السقف :

ـ اخرس !

صُدم (فلفل) رغم تعوّده على هذا الرد من صديقه :

ـ أخرس ؟!

ـ نعم اخرس !

ـ وهل جئت بى من «المطرية» إلى «المقطم» كى تطلب منى أن أخرس ؟!

وإذا برد (ميدو) بنفس هدوئه وشروده :

ـ قلت لك اخرس وإلا أطفأت السيجارة فى عينك .

فلم يملك (فلفل) إلا أن يرفع وجهه إلى السماء مغمغمًا فى كمد :

ـ ياربى .. ألم يكن من الأفضل كسر رقبته بدلاً من قدمه ؟!

ثم التفت إلى صديقه يتأمله فى حيرة من سر هذا الشعاع الباسم المنطلق من عينيه إلى سقف الغرفة .. أكثر من عشرين دقيقة مضت عليهما وهما بهذا الحال ، حتى وجد (فلفل) نفسه يسأل (ميدو) :

ـ هل تحضّر عفريتًا يا (ميدو) ؟!

ولما لم يجبه (ميدو) بشىء مضى يقول له متوسلاً :

ـ والنبى تحضّر عفريتًا مجرمًا يقتلك ويخلصنى منك .

قالها وانكفأ برأسه فوق يده فى يأس ، ليعاود الصمت تطويقهما ، ولكن ماهى إلا لحظة حتى كان رنين موبايل (ميدو) يقطعه ، و (ميدو) يسرع بالرد هاتفًا بلهفة طاغية :

ـ أين أنت ؟

ثم إذا به يلتفت إلى (فلفل) هاتفًا به دون أن ينزل الموبايل عن أذنه :

ـ انزل إلى باب الفيلا بسرعة !

ـ ماذا أفعل هناك ؟

ـ انزل يا غبى !

ولم يملك (فلفل) إلا الانطلاق جريًا وهو يلعن اليوم الذى جمعه بهذا المجنون ، ولكن ماهى إلا لحظات حتى كان يعود بحال غير الحال .. دخل على (ميدو) متهللاً هاتفًا فى هياج ، كطفل فى قمة انبهاره :

ـ أشهد لك يا ملك الجن .. أشهد لك .

والتفت بانبهاره وهياجه إلى هذه التى عاد بها يلتهمها بعينيه مفتونًا ..

صاروخ الجمال !!

صاروخ جمال ما ورد قبلاً على عيون الصديقين !! قد أهيف ميّاس تعتصره بذلة جينز كحلية جديدة آية فى الشياكة ، يضوى من تحتها « بدى » أصفر مُطرز الصدر بالترتر الفضى اللامع ..

وجه مرمرى متورد ترتسم ملامحه الغزلانية بعذوبة ربانية خالصة .. شعر حريرى فاحم يفترش الظهر والكتفين كوشاح إمبراطورى فخيم .. عينان حوريتان كحيلتان تشعان بريقًا ساحرًا كوميض النجوم الزُهرية فى ليل الدجى .. وأروع من ذلك كله ابتسامة قمرية تتلألأ فوق الشفتين النبقتين القرمزيتين كسنا بدر ساطع فى سماء الربيع !!

إنها الفتنة مجسمة فى هيئة أنثى !!

إنها (شيماء) !!

وجد (ميدو) نفسه يشد جسده إلى أعلى متكئًا بظهره على ظهر السرير العاجى السيمون وهو يتفرسها بعينيه مشدوهًا . فازدادت ابتسامتها إشراقًا وهى تقدم له باقة الورد الرقيقة التى فى يدها قائلة :

ـ حمدًا لله على السلامة يا عم الشقى .

مده يده متناولاً منها الورد ، وعيناه تمرحان على وجهها بدهشتهما :

ـ الله يسلمك يا مرمرية .

وأشار إلى مقعد يكاد يلاصق الفراش :

ـ تفضلى .

جلست :

ـ متشكرة .

أشار إلى (فلفل) يقدمه لها :

ـ (عمرو) صديقى الشهير بـ (فلفل) .

التفتت إلى الفتى الواقف إلى يمينها ، فإذا به ما زال يلتهمها بعينيه الهائجتين ، فانسابت ابتسامتها مداعبة :

ـ فعلاً ، شكلك (فلفل) .

وإذا بالفتى ينحنى عليها بشدة ، مرددًا بمنتهى الاستجداء :

ـ نعم .. أنا (فلفل) .. ورحمة أمى (فلفل) .. (فلفل) خالص .. (فلفل) نار .. (فلفل) ...

ولم يكملها من هتفة (ميدو) المحذرة :

ـ (فلفل) !

أسرع يلتفت إليه فى ارتياع :

ـ نعم يا ملك ....

ـ اخرس ! اخرس وإلا أخرجتك من هنا .

وكان رد الفتى هاتفًا وهو يسرع بالجلوس مربعًا تحت قدمى صاروخ الجمال الذى شطر عقله :

ـ لا ... لا يا ملك .. سأخرس .. سأخرس خالص .

وأسرع بتكميم فمه بيده ، تاركًا العنان لعينيه تلتهمان الفتاة ببلاهته المضحكة ، فلم تجد مفرًا من تجاهله ، والالتفات إلى (ميدو) متسائلة بابتسامتها القمرية :

ـ ها ... ما أخبار عم الشقى !

مط شفتيه تضجرًا مجيبها :

ـ أكاد أموت من الملل .

دُهشت :

ـ الملل ؟!

ـ نعم ، فأنا لست معتاد هذا السجن .

ـ أو لا يوجد فى هذه المملكة كلها ما يسليك ؟! « نت » .. « تليفزيون » .. أو حتى « كتاب » .

ـ الثلاثة ليس لى فيها .

ـ يا ساتر ! فى أى شىء لك إذن ؟

وإذا بالرد يأتيها خاطفًا من (فلفل) :

ـ فى عمل المساخيط من الرخام .

التفت الفتاة إلى (فلفل) متسائلة بدهشة :

ـ أية مساخيط ؟

ـ هذه .

وأسرع يلتقطِ من فوق الكومودينو الملاصق للفراش طائرًا من المرمر الأبيض ، ويناوله لها ، فإذا بقلبها يخفق لجمال الطائر ، فقد بدا من فرط روعته وكأنه طائر حى يحلَق فى الفضاء بمنتهى السعادة .. انسابت هتفتها من قلبها :

ـ الله !

واستدارت إلى (ميدو) .. تسأله بانبهارها الطاغ :

ـ أنت صنعت هذا ؟!

ومرة أخرى جاءها الجواب من (فلفل) :

ـ ومئات أخرى أشكال وألوان .

ـ وأين هى ؟

وجاءها الجواب هذ المرة من (ميدو) :

ـ فى معارض الأنتيكات .

ـ أتبيعها ؟

ـ إنها هوايتى وحرفتى .

وإذا بـ (فلفل) يهب واقفًا ، ثم ينحنى أمامها ، قائلاً بطريقة مسرحية :

ـ سيدتى الصاروخية التى نسفت عقلى المتواضع بجمالها ، بصفتى مدير أعمال الفنان العبقرى (محمد فهيم) الشهير بـ(ميدو) يشرفنى دعوة سيادتك لزيارة ورشته المتواضعة جداً لمشاهدة إبداعاته الجامدة جداً .

ـ وأين هى هذه الورشة يا سيادة مدير الأعمال ؟

ـ فى « الهجانة » يا افندم .

فوجئت الفتاة :

ـ « الهجانة » ؟!

وجاءها تأكيد (فلفل) :

ـ نعم يا افندم .. عزبة « الهجانة » .

وجدت نفسها تلتفت إلى (ميدو) فى دهشة :

- أو لم تجد سوى « الهجانة » لتقيم فيها ورشتك ؟!

وكان رد (ميدو) ببساطة :

- وماذا يعيب « الهجانة » ؟

لا يعيبها شىء ، ولكنى أقصد ...

أسرع يقاطعها :

- تقصدين أنها حى شعبى أكثر من اللازم ، ولا تناسب واحدًا ابن قصور مثلى ؟

- نعم ، هذا ما قصدته ..

انسابت على شفتيه ابتسامة معاتبة :

- لو نظرت لى كفنان لفهمتى .

- فهمت ماذا ؟ جنون الفنان ؟

- بل كنت فهمت أن الحى الشعبى هو كنز الفنان .

- كنز الفنان ؟!

- نعم .

وإذا بالفتى يلتقط من فوق الكمودينو الآخر تحفة مرمرية لامرأة عجوز مضيئة الوجه ، تجلس متربعة ، وقد أرسلت

أمامها بعيدًا بنظرة صافية تفيض سماحة ورضا واستبشارًا ، وكأنها تعانق الغيب شاكرة.. وجد نفسه يعانق المرأة بعينيه بمنتهى الحب والإجلال ، وهو يردف قائلاً لـ (شيماء) :

- كنز الفنان الحقيقى الذى ينهل منه ، فيبدع ، هو الفطرة الإنسانية المجردة النقية ، هو المشاعر الإنسانية الصادقة التى تتدفق بعفوية دون منظم أو فلتر.. وما الأحياء الشعبية إلا أنهار جارية من هذه المشاعر .

وتحوّل الفتى بعينيه المفعمتين بالحب إلى (شيماء) ليسألها باسمًا :

- هل فهمتِ شيئًا ؟

ولم تجبه الفتاة بكلمات ، وإنما راحت عيناها تحلقان على وجهه بنظرة جديدة تمامًا.. نظرة تزاحم فيها الانبهار ، مع الإكبار ، مع خفقة القلب بروعة الاكتشاف .. اكتشافها أن ذا الملعقة الذهبية هذا ينتمى إلى عالمها هى أكثر مما ينتمى إلى عالمه المخملى .. فرحتها باكتشافها هذا كادت تنسيها نفسها ، فسارعت بالنهوض قائلة للفتى بابتسامتها :

- حمدًا لله على السلامة مرة أخرى يا برنس .

انفلتت هتفة الفتى مستنكرًا :

ـ ماهذا أيتها المرمرية ؟ أين تذهبين ؟

إنك حتى لم تشربى شيئًا ؟

وإذا برد الفتاة وهى تحتضنه بعينيها الفاتنتين الباسمتين .

ـ سأشرب عندك فى ورشتك .

ـ لا .. الورشة لن أنزلها قبل أن أستعيد قدمى المسكينة .

ـ سأنتظرك ، وأول يوم تستعيدها فيه تأخذنى إلى الورشة .

وإذا بها تمد إصبعيها ممسكة بخصلة من شعره الأسود القصير ، وتردف قائلة بنظرتها المتوهجة بابتسامتها :

ـ وإياك أن تعطى هذا اليوم لواحدة غيرى .. باى .

وهمت بأن تستدير منصرفة ، فإذا بها تعاود الالتفات نحوه مرة أخرى قائلة :

ـ آه .. كدت أنسى .

ومدت يدها مستخرجة مفتاح سيارة من جيبها ، وناولته له قائلة :

ـ سيارتك أمام الفيللا ، وموتورها يعمل فيها .

فوجئ (ميدو) وانطلقت هتفته :

ـ ماذا ؟!

وكان رد الفتاة بابتسامتها الفاتنة :

ـ باى يا عم الشقى والتفتت إلى (فلفل) ، قائلة :

ـ هيا اخرجنى يا (فلفل) !

وأسرع (فلفل) يفتح لها باب الغرفة ، فإذا بالدكتورة (لميس) تدخل لتفاجأ بـ (شيماء) أمامها ، فأسرعت تبادرها بالتحية فى بشاشة :

ـ مساء الخير .

وجاءها رد (شيماء) بابتسامة رقيقة :

ـ مساء النور يا هانم .

وأسرع (ميدو) يقدم الفتاة إلى والدته ، كاظمًا قلقه :

ـ (شيماء) صديقتى يا ماما .

وجاء رد الدكتورة :

ـ أهلًا وسهلًا .. تشرفنا يا حبيبتى .

ـ الشرف لى يا هانم .. بإذنك .

ـ تفضلى .

واستدارت (شيماء) منصرفة مع (فلفل) تشيعها الدكتورة بنظرة إعجاب ، بينما راح (ميدو) يتنفس الصعداء ، ثم يرفع عينيه إلى السماء ، شاكرًا لها إمساكها بلسان والدته .

★ ★ ★

الفصل السادس

سهرة تليفونية من ساعتين على الأقل يوميًا لم تنقطع بين (ميدو) و (شيماء) ، ولمدى ثمانية وأربعين يومًا متواصلة .. شلالات من البوح الصادق راحت تتدفق بين الفتى الشقى والفتاة المرمرية دون توقف ، حتى باتا كنهرين يصبان فى بعضهما عبر الأثير .. ولم يكن هذا التواصل الهاتفى بينهما سوى بديل متعمد لتكرار زيارة (شيماء) لـ (ميدو) فى الفيللا .. (ميدو) هو الذى تعمد ذلك تحاشيًا لكارثية أمه .. لو علمت أن قدمًا دويقية وطأت الفيللا لحلت كارثة بلا حل.. لذلك كان على المسكين أن يقنع بالوصال الهاتفى مع الفتاة حتى يستطيع هو الخروج إليها ..

وجاء اليوم الذى طال انتظاره ..

ووقف (ميدو) على قدميه ، وراح يزرع أرض غرفته بخطواته ذهابًا وإيابًا فى سعادة طاغية أمام والديه والدكتور (على السمرى) الذى قام بفك الجبيرة توًا عن قدمه .. وحينما اطمأن الأبوان إلى تعافى القدم تمامًا ، سارعًا بمعانقة ابنهما بسعادة غامرة ، وليهتف به أبوه بفرحته الطاغية :

ـ مليون مبروك (ميدو) .. مليون مبروك يا شقى .

ولتهتف به أمه بفرحة أكبر ، وهى تعتصره فى حضنها :

ـ غدًا سأقيم لك حفلاً صبَاحيًا .

وبالفعل ما كادت شمس الغد تغرب حتى كانت الفيللا تغرق فى فيض من الأنوار والورود والزينات ، وتستقبل أفواج المهنئين على أنغام الـ « دى جى » ولكن الجميع ، وفى مقدمتهم الأبوان فوجئوا باختفاء عريس الحفل من الفيللا ، وفى اللحظة التى اكتشفوا اختفاءه فيها ، كان (ميدو) يغلق باب سيارته على فتاته المرمرية الجالسة إلى جواره ، ويهم بأن ينطلق بها ، فإذا بالفتاة تسأله فى تبسّم جميل :

ـ إلى أين ؟

وجاءها جوابه ، وهو يملأ عينيه من جمالها وشياكتها الطاغية :

ـ إلى « الهجانة » ..

ـ بل إلى « الزمالك » .

فوجئ « ميدو » :

ـ « الزمالك » ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ هناك ستعرف .

زاده غموضها إثارة .

ـ هناك أين يا مرمرية ؟!

ـ ساقية الصاوى .

قفزت دهشته إلى ذروتها :

ـ ساقية الصاوى ؟!

ولكنه ما كاد يرددها ، حتى كانت دهشته تهبط تمامًا ، ويردف قائلاً :

ـ آه .. فهمت .

ابتسمت متسائلة :

ـ فهمت ماذا ياعم الشقى ؟

أجابها ، محلقًا على وجهها بعينيه الباسمتين :

ـ فهمت أنك برنسيسة .

وتحرك بالسيارة ... لم يكن جوابه هذا سوى مواراة لما فهمه حقا ، وهو أن إحساسها بالفجوة الطبقية الهائلة التى تفصلهما يدفعها إلى تجميل نفسها أمامه بزيارة مكان كهذا ، حتى ولو لم يكن يربطها بأنشطته أية علاقة .. وجد نفسه يلتفت إليها قائلاً بابتسامته الحلوة :

ـ من « الهجانة » إلى « الزمالك » ، ذوقك يكسب يا جميل .

تطلعت إليه بنظرة باسمة ، ثم مدت يدها إلى علبة أشرطة الكاسيت التى تتوسطهما ، منتقية منها شريطًا ، ووضعته فى الكاسيت ، فانساب صوت (أليسا) الملائكى باغنيتها التى تقطر عذوبة « خد بالك علىّ .... » ، ليجد (ميدو) نفسه يلتفت إليها مبتسمًا ، فقد أدرك أنها تقصده بالأغنية ... بلغا الساقية ، فإذا بحزمة من المفاجآت فى انتظار (ميدو) .. (عصفور) بهيًا أنيقًا واقفًا فى انتظارهما بمدخل الساقية !! موظفو الساقية يستقبلون (شيماء) بحفاوة بالغة وبالتهانى !! مضت به إلى قاعة الفنون الرئيسية ، فإذا بحفل افتتاح معرض للرسم على الزجاج ، وإذا بالمسئولين عن المعرض يحيطون بها ، ويغمرونها بتهنئاتهم وإشاداتهم !!

حزمة من الألغاز جعلت (ميدو) يلتفت إلى (شيماء) قائلاً باستغرابه العاصف :

ـ أنا لست فاهمًا شيئًا .

ابتسمت ، ثم أخذته من يده إلى لوحة الافتتاح الضخمة المنصوبة بمدخل القاعة ، والتى كان قد مر بها دون أن يتوقف أمامها ..

أشارت له أن يقرأها .. فعل ، فإذا بفيه يفغر ، وعينيه تجحظان ، متنقلتين بين اللوحة والفتاة بذهول يكاد يذهب بعقله ، فقد كان اسم (شيماء سعيد) يتصدر اللوحة ، مسبوقًا بلقب الفنانة .. وجد نفسه يحدّق فى الفتاة ، متسائلاً بذهوله العاصف :

ـ (شيماء سعيد) من ؟

وكان رد الفتاة بابتسامة ونظرة ونبرة يسطع فيها الفخر :

ـ (شيماء سعيد) « الدويقية » .. بنت « الدويقة » .

ـ أنت ؟!

ـ صحف « مصر » كلها تنوّه عن هذا المعرض من أسبوع .

ـ واسمك فى هذه الصحف ؟!

أجابته مداعبة :

ـ ألا أستحق هذا الشرف ؟

لم يجب .. اكتملت عليه سطوة المفاجأة ، فعصفت بقدرته على النطق ، ولم تترك له سوى القدرة على التحديق فى الفتاة بذهول يبلغ حد البلاهة .. انتبه على صوت مذيع تليفزيونى معروف يستأذن الفنانة الشابة فى التسجيل معها ، فما كان منها إلا أنها التفتت إلى الفتى الذاهل ، قائلة له بابتسامتها الفاتنة :

ـ أريد منك نقدًا موضوعيًا لكل هذه الأعمال ، أى عليك مشاهدتها كلها بإمعان .. ممكن ؟!

واستدارت إلى المذيع ، بادئة معه التسجيل ، بينما تحرك (ميدو) بخطواته ، بادئًا جولته مع الثلاث والعشرين لوحة زجاجية التى تُزين جدران القاعة ..

* * *

ومن « ساقية الصاوى » بكل وقارها وجلالها إلى « المون ديك » الراسية على نيل « الزمالك » بكل مخمليتها ورومانسيتها ، دخلها (ميدو) بالفنانة الفاتنة ، مزهوًا بها .. أجلسها أمامه فى ركن قصى من قاعة الروستوران السابحة فى سيل رقيق من النور الأزرق الناعم ، والأنغام الحالمة .. لحظات ، وجاءهما « المترو دوتيل » ، فأسرع (ميدو) يتخلص منه قائلاً :

ـ هات أحلى عشاء عندك .

انصرف «المترو دوتيل» ، فأسرع (ميدو) يلتفت إلى (شيماء) ، محلقًا على وجهها بنظراته الصارخة بدهشته العارمة من جراء ثقل المفاجأة التى باغتته بها الليلة .. انتبهت إلى دهشته التى مازالت تأخذ بتلابيبه ، فانسابت ابتسامتها متلالئة فوق شفتيها الفاتنتين ، والتفتت تتأمل مصباحًا معلقًا قبالتها على شكل حبة كمثرى بللورية ، يتراقص بداخلها ضوءها الأزرق كموجة شقية تم اصطيادها من النهر .. هفا قلبها إلى جمال المصباح الجديد فى فكرته .. التفتت إلى (ميدو) قائلة بابتسامتها :

ـ ذوقك جميل يا (ميدو) .

وكأنه لم يسمعها ، وجد نفسه يسألها بدهشته :

ـ ألا من تفسير لمفاجأة الليلة أيتها المرمرية ؟

استوقفتها لوهلة براءته الفائحة من ملامحه ، ثم ابتسمت مجيبة :

ـ الأمر بسيط جدًا يا (ميدو) .. كنت أهوى الرسم على الزجاج من طفولتى ، حتى التحقت بمدرسة « الصنايع » قسم زخرفة ، وهناك اكتشفنى أحد أساتذتى ، وتبنانى .

لم تذهب دهشته :

ـ ولكن !

ـ ولكن ماذا يا عم الشقى ؟

ـ عملك فى ورشة كهذه !! معيشتك فى « الدويقة » !!

هنا فقط ، ولأول مرة منذ بدء ليلتهما ، اختفت بشاشة «الفتاة» من وجهها ، لتحل محلها غيمة مرارة ، انفلتت معها زفرة ألم ، أجابته بعدها :

ـ أما الأولى يا (ميدو) ، فأنا المسئولة عن أسرتى ، فأبى قعيد بمرض جلدى التهم ساقه ، وأخى الوحيد شاب ضائع ، لاجدوى منه ، ولذلك كان علىّ أن أعمل منذ أن كنت تلميذة فى الدبلوم .

ـ ولكنك الآن فنانة تستطيعين الكسب من فنك هذا .

ابتسمت لسذاجته .

ـ وهل مثل هذه الفنون تأتى بدخل فى بلدنا ؟

إنها تكلفنى أكثر مما تأتينى به ..

ـ هذه واحدة ، فماذا عن الأخرى ؟

ـ الأخرى ياعزيزى ، أننى وُلدت فى «الدويقة» ، ولم أخترها ، ومنذ فتحت عينى عليها لم استرح لها ، وأبدًا لم تكن

لى بها أية صداقات ، أو علاقات سوى علاقات العمل التى رأيتها أنت فى الورشة .. وعندما كبرت ، وجاءتنى فكرة مغادرتها ، اكتشفت أن والدىَّ منذ اثنى عشر عامًا يجريان وراء شقة من شقق المدن الجديدة التى وعد بها المسئولون وما زالوا ، حتى اكتشفا سذاجتهما ، حينما تأكدا أن هذه الشقق هى كعكة المحاسيب فقط ، وحينما كبرت أنا ، وصرت كما ترانى رحت أسعى لدى المسئولين ، حتى توصلت إلى واحد منهم ، بتوقيعه يتم تسليم الشقة لطالبها فى أيام ، فإذا بحضرة المسئول الكبير المحترم ـ الذى كلما أطل علينا من وسيلة إعلام ، أتحفنا بالحديث عن مبادئه وكرم أخلاقه الذى يجعل باب مكتبه مفتوحًا دائمًا أمام أى مواطن يقصده ـ يراودنى عن نفسى !!

وأطرقت الفنانة الشابة ، ماسحة دمعة مريرة ، انسابت فوق خدها ، ثم أردفت بمنتهى الإحساس بالقهر :

ـ يومها فقط أدركت فى أى بلد نعيش نحن الآن !!!

وسكتت الفتاة ، مطرقة إلى المائدة بكمدها ودموعها ، بينما سقط الطير على رأس ابن المسئولة الأولى عن تضامن المجتمع وتراحمه ، والصحفى الكبير الذى لا يكف عن تلميعها .

* * *

الفصل السابع

لم يترك (ميدو) (شيماء) حتى أعاد إليها ابتسامتها بشقاوته التى تذيبها ، وحينما صُف العشاء أمامهما ، فوجئت به الفتاة يطعمها بيده بمنتهى الحنو ، وهو يداعبها ويدللها ، وكأنها طفلته المدللة ، حتى شعرت بأنها صارت عصفورًا بجناحين ، فإذا بها تهب واقفة قائلة له بمنتهى السعادة :

ـ نفسى أطير يا (ميدو) .

تطلع إليها (ميدو) متفكرًا لبرهة ، أسرع بعدها يلقى نظرة على ساعة يده ، وإذا به يهب واقفًا هو الآخر ، ملقيًا بمائتى جنيه فوق المائدة ، ثم يمد يده إلى الفتاة قائلًا :

ـ تعالى .

وانطلق بها .. دقائق لم تتجاوز العشرين ، وكانت أمنيتها تتحقق ، وجدت نفسها تطير فعلًا على ارتفاع مائة وعشرين مترًا من سطح الأرض ، تحملها أعلى أرجوحة فى « دريم بارك » .

هاهى الفتاة المرمرية تشق براح الفضاء المتلألئ بالنجمات الزهرية الناصعة ، دانية من البدر المطل من فوق عرشه

الفضائى بهيًا باسمًا ، كأنه يرحب بها ، سعيدًا بسعادتها .. وجدت نفسها بجنون سعادتها تصيح بأعلى صوتها ، منادية (ميدو) الجالس إلى جوارها ، قابضًا على كتفيها بكلتا يديه ، خوفًا عليها من اندفاع الأرجوحة الجنونى .

ـ ميدوووووووووووووووو ...

وجاءها الجواب صيحة أعلى من صيحتها :

ـ نعم يا مرمرية .

ـ أحبـ ااااااااااااا ك .

وجاءها جواب (ميدو) ، مترددًا صداه فى الفضاء :

ـ شوووووووووووشوووووووو !

ـ روح شوشو ..

ـ أحبـ ـــــــــــ ك .

وتناثرت الحروف الحلوة فى الفضاء ، كقطوف ورد فوّاحة بعطر الحياة ، وانطلقت ضحكات الحبيبين الطائرين من قلبيهما ، سابحة فى الفضاء ، معانقة السحاب والقمر والنجوم ، فى سعادة أسطورية بتدشين قصة حب جديدة فى سماء الكون المتعطش للحب .

★ ★ ★

وهبط الحبيبان الرائعان إلى الأرض فوق جناحى فرحتهما الأسطورية بتوقيع عقد حبهما ..

وانطلق (ميدو) بحبيبته ليعيدها إلى منزلها ، فقد اقتربت الساعة من منتصف الليل ، وبلغا «الدويقة» ، فإذا بـ (شيماء) تُفاجأ بـ (ميدو) يغادر السيارة معها ، مصرًا على اصطحابها حتى المنزل ، خوفًا عليها من شرور الحى المعروفة فى مثل هذه الساعة .. طارت فرحة الفتاة ، وانقبض قلبها ، وانبرت تحاول إثناءه عن عزمه ، فإذا بمحاولاتها تذهب أدراج الرياح .. لم تجد أمامها سوى الرضوخ لرغبته .. مضت به فى دروب الحى الثعبانية المعتمة بقلب واجف متعشم فى ستر الله .. فجأة وقع أول ماكانت تخشاه .. انشقت الأرض عن (أحمد) شقيقها ، فأسرعت تصافحه بابتسامة تخفى بالكاد هدير قلقها الذى ينهشها :

ـ أهلاً (حمادة) .

والتفتت إلى (ميدو) ، تقدمه له :

ـ الأستاذ (محمد) .

وإذا بجواب (أحمد) فى بشاشة وأدب جم :

ـ أهلاً (محمد) باشا .. نوّرت « الدويقة » .

ووجد (ميدو) نفسه يلتفت إلى (شيماء) متسائلاً ، فأسرعت تجيبه بابتسامتها المتوترة :

ـ (أحمد) شقيقى .

انسابت ابتسامة (ميدو) فى حميمية ، ملتفتا إلى (أحمد) :

ـ أهلاً بك يا (حمادة) .

وعاد (أحمد) يكررها باسمًا :

ـ نوّرت « الدويقة » يا باشا .

والتفت إلى شقيقته بابتسامته ، آذنًا لها بمواصلة طريقهما :

ـ تفضلا !

ومضت (شيماء) بـ (ميدو) ، وهى تتنفس الصعداء ، بينما (أحمد) يفرد بين يديه العشرين جنيهًا التى دستها الفتاة فى يده ، دون أن ينتبه لها (ميدو) ، مرددًا :

ـ أكثر الله من باشواتك يا (شوشو) يا أختى .

وبلغت الفتاة بحبيبها المنزل ، فإذا بها تتوقف أمام بوابته ، ملتفتة إلى (ميدو) بنظرة طفح فيها القلق مرة أخرى ، فما كان من (ميدو) إلا أنه ابتسم متسائلاً :

ـ ماذا أيتها المرمرية ؟ هل ستردينني من الباب ؟!

انسابت ابتسامة الاستسلام فوق شفتيها ، وهزت رأسها نفيًا ، ثم استدارت دافعة البوابة المتهالكة بيدها ، مرسلة تنبيهها لمن بالداخل :

ـ معى ضيف .

ودخلت به الغرفة ، لتهب « كريمة » واقفة من مجلسها فوق الحصيرة ، مرحبة به ببشاشة ، وقد أخذتها وجاهته التى تنم عن بيئته :

ـ أهلاً وسهلاً .

وأسرعت (شيماء) تقدمها له فى تبسّم :

ـ السيدة (كريمة) ، الشهيرة بـ « كرم » ، مامتى العزيزة .

ومد (ميدو) يده يصافحها بابتسامته الحلوة :

ـ أهلاً يا ست الكل .

والتفتت (شيماء) إلى أبيها الجالس إلى جوار أمها ، تقدمه بدوره للفتى :

ـ السيد (سعيد عمر) ، الشهير بـ (سعدة) ، والدى العزيز .

وجاءه صوت الأب ، معتذرًا فى ود لعدم استطاعته الوقوف .

ـ لا مؤاخذة يا باشا .

فما كان من (ميدو) إلا أنه مال عليه مصافحًا بحميمية :

ـ ألف سلام يا عم (سعيد) .

ـ الله يسلمك يا باشا .

وجاء الدور على (ميدو) لتقدمه الفتاة إلى أسرتها ، فالتفتت إليه قائلة وهى تداعبه بعينيها الباسمتين :

ـ الأستاذ (محمد فهيم) الـ ....

ولم تجد ما تضيفه ، فأسرعت تستطرد مداعبة فى شقاوة :

ـ بدون إضافات .

وضحك الجميع ، بينما استدار (ميدو) إلى (عصفور) الذى كان قد نهض واقفًا من مجلسه بجوار الأبوين فور دخول (ميدو) بصحبة الفتاة ، والذى كان قد سبقهما بالعودة من (ساقية الصاوى) منذ ساعات ليصافحه متسائلاً فى حميمية :

ـ أين زغت منا يا ذا الجناحين ؟

وكان رد (عصفور) بابتسامة صافية جميلة :

ـ لم أشأ أن أكون عزولاً .

فما كان من (شيماء) إلا أنها سارعت بوضع قبلة حميمة فوق خده ، قائلة :

ـ أبدًا لن تكون عزولاً يومًا يا (عصفور) .. أنت ملاكى الحارس .

واستدارت (شيماء) إلى (ميدو) مردفة بابتسامتها الفاتنة :

ـ بقى اثنان من العائلة الكريمة ، اسمح لى أن أقدمها لك .

وأشارت إلى السرير المتهالك ، حيث يغط التوأمان (رزق) و (رحيم) فى نومهما بمنتهى البراءة .. تأملهما (ميدو) فانسابت فوق شفتيه ابتسامة حانية من قلبه .. فقد بديا فى عينيه كملاكين صغيرين لا شأن لهما بهذه الدنيا ، وما يجرى فيها ... ولم يقطع تأمله لهما سوى صوت (سعيد عمر) الودود :

ـ تفضل يا باشا .

وأشار له بالجلوس فوق الكنبة ، فإذا بـ (ميدو) يلتقط وسادة الكنبة الصغيرة ، قائلاً له :

ـ بل سأجلس بجوارك يا عم (سعيد) .

وبالفعل قبل أن يأتى (سعيد) بجواب ، كان الفتى قد جلس إلى جواره فوق الوسادة ، لتجد (شيماء) نفسها تتأمله ، وقد انفتحت له ضفتا قلبها على مصاريعهما ، حتى انتبه الفتى إلى وقفتها ، وإلى نظرتها التى تعانقه بمنتهى الحب ، فأسرع ينبهها إلى نفسها بشقاوته الحلوة :

ـ ماذا يا (شوشو) ؟ هل لك علينا دين كى تقفين هكذا فوق رؤوسنا ؟

وانفلتت ضحكات الجميع ، بينما كادت كلمة « أحبك » تنفلت من شفتى الفتاة الفاتنة ، لولا أنها سارعت بوضع إبهامها بين أسنانها ، كى تمنع الكلمة من الانفلات من شفتيها ، ولكنها لم تستطع منعها من عينيها .. قذفته بها على جناح نظرة هائمة ، ثم ابتسمت مستأذنته :

ـ سأغيب عنك ثوانى .

واتجهت إلى الدولاب ، مستخرجة منه قطعتين من ثيابها المنزلية ، ومضت مغادرة الغرفة ، بينما عاودت (كريمة) و (عصفور) جلوسهما على الحصيرة ، ولتبادر الأولى (ميدو) بقولها فى حميمية وبشاشة :

ـ نوَرت « الدويقة » كلها يا حبيبى .

وجاءها رد (ميدو) سعيدًا ممتنًا :

ـ شكرًا يا ست الكل .

وجاء الدور على (سعيد عمر) :

ـ حالاً سيكون العشاء أمامك .

وأسرع (ميدو) يربت على ساقه باسمًا ممتنًا :

ـ تعشينا يا حاج والحمد لله .

فما كان من (كريمة) إلا أنها سارعت بدس يدها فى صدرها ، مستخرجة كيس نقودها القماشى ، وهى تقول له :

ـ إذن سنأتى بـ « كوكاكولا » حالاً .

وإذا برد (ميدو) باسمًا ، وهو يمسك بيدها فى رقة :

ـ بل أريد كوب شاى صعيدى أصلى .

وكان رد (كريمة) سريعًا ، وسط ابتسامات الجميع لخفة ظله :

ـ هكذا فقط ؟! حالاً ستشرب كوب شاى لم تشربه فى حياتك .

ومدت يدها متناولة موقد الغاز الصغير من ركن الغرفة ، لتضعه أمامها بادئة فى عمل الشاى ، بينما ظهرت (شيماء)

بباب الغرفة ، فإذا بقلب (ميدو) ينخطف منه ، وعينيه تتعلقان بالفتاة بنظرة افتتان لم تَخف على أحد من الجالسين من حوله ، فقد عادت مرتدية عباءتها الحمراء الزاهية ، التى تضفى عليها حسنا طبيعياً ساحرًا ، وتلقت الفتاة نظرته ، فانسابت ابتسامتها فى حياء زادها سحرًا على سحرها ، وتقدمت جالسة إلى جوار (عصفور) ، سائلة (ميدو) بفرحتها المتلألئة فى عينيها :

ـ ها يا باشا ، ما رأيك فى معيشة « الدويقة » ؟

وإذا بالجواب يأتيها من أمها ، لا من (ميدو) :

ـ قُطعت « الدويقة » ومن يريدها .

وفوجئ (ميدو) :

ـ يا ساتر ! لماذا يا ست (أم أحمد) ؟!

ـ لماذا ؟!

رددتها (كريمة) فى كمد طاغ ، ومدت يدها متناولة (براد) الشاى من فوق الموقد ، وراحت تصبه فى الأكواب المصطفة فوق الصينية الصاج الصدئة ، ثم مدت يدها بكوب منها لـ(ميدو) ، قائلة له بكمدها المكظوم :

ـ تفضل يا حبيبى .

ـ تسلم يدك يا ست الكل .

ووضع الكوب أمامه ، وهم بأن يعاود سؤالها عن سبب كمدها إلى هذا الحد ، فإذا بفرقعة هائلة مكتومة تصم آذانهم .

فأسرع (ميدو) يسألهم في دهشة :

ـ ماهذا ؟!

وكان رد (سعيد عمر) :

ـ هذا سبب من أسباب نقمتنا على « الدويقة » .

ـ ماذا تعنى يا عم (سعيد) ؟

وجاءه التفسير من (شيماء) :

ـ هذا الصوت معناه أن جزءًا من حافة الجبل ينفصل عنها ، وربما سقط علينا .

انفكت مفاصل (ميدو) ، وطارت نظرته الفزعة إلى سقف الغرفة هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

وأسرعت (شيماء) تهدئ من روعة بابتسامتها الدهشة :

ـ لا تخف هكذا ! هذا شيء عادى ، وقد تعودناه .

وانفلت سؤال الفتى بهلعه :

ـ تعودتم ماذا ؟

ـ تعودنا عم (المقطم) يفرقع مرة ، ويقذفنا بصخوره مرة .. وهكذا .

ـ لكن هذا خطر عليكم !

ـ تعودناه .

هكذا جاءه الرد ببساطه من (سعيد عمر) ، مثيرًا دهشته من سلبيتهم إلى هذا الحد العجيب ، وإذا بـ (عصفور) يكمل عليه :

ـ ليلة الخميس الماضى سقطت صخرة فى حجم حجر الرصيف فوق بيت (أم بكرى) ، ومن ستر ربنا أنها سقطت فى الحوش ، لا فى الغرفة ، ولولا ذلك لقتلتها هى وأطفالها الخمسة وهم نائمون .

ومرة أخرى طارت نظرة هلع من عينى (ميدو) إلى سقف الغرفة ، ثم عاد يسألهم بهلعه ودهشته :

ـ وما الذى يسكتكم على هذا ؟!

- يسكتنا ؟!

رددها (سعيد عمر) فى تهكم مرير ، ثم أردف بتهكمه ومرارته :

- يا باشا ، رئيس الحى وحاشيته لو كان بأيديهم لوضعونا فى السجن من كثرة شكوانا وصراخنا .

وقفزت دهشة (ميدو) إلى ذروتها ، وهو يسألُ الرجل :

- هل تريد أن تخبرنى يا عم (سعيد) أنهم يعلمون أن الجبل يتساقط عليكم ولا يتحركون ؟

وإذا برد (كريمة) :

- بل هم يتمنون أن يسقط كله علينا كى يرتاحوا منا .

وكاد الرد يعصف بعقل الفتى ، وخيل إليه أنه يشاهد ويسمع عرضا مسرحيًا هزليًا ، وليس واقعًا مأساويًا ، ووجد نفسه يدير عينيه على وجوه المساكين بنظرة طفحت بإحساسه الداهش الحائر بين التكذيب والتصديق ، فإذا بـ (كريمة) وقد تهدّج صوتها بالدموع ، تردف قائلة بحسرة تشق القلب :

- صدقتى يا ضنايا ، نحن أنفسنا صرنا نتمنى أن يسقط علينا الجبل كله كى يريحنا من هذه المعيشة التى لا يرضاها رب ولا عبد .

ورفعت طرف جلبابها تمسح به دموعها ، بينما (ميدو) ينظر إليها ، وقد سقط على رأسه الطير ، فلم يعد يدرى ماذا يقول ، وإذا بـ (سعيد عمر) يسأله بمنتهى المرارة :

- بذمتك يا باشا بماذا شعرت الآن وأنت تمشى فى « الدويقة » ليلاً ؟

وفوجئ (ميدو) بالسؤال ، ولم يستطع جوابًا بلسانه ، ولكن الجواب طفح جليًا على وجهه ، بينما مضى (سعيد عمر) مستطردًا :

- ألم تندهش لوجود حياة بشر بهذا الشكل ؟ ألم تسأل نفسك كيف يستطيع بشر العيش هنا ؟ ألم تسأل نفسك هل هؤلاء الذين يعيشون هنا بشر مثل البشر ؟ وإذا كانوا بشرًا ، فكيف يعيشون بهذا الشكل؟ ثم ألم تسأل نفسك ما إذا كنا مصريين لنا حق فى هذا البلد ؟ ألم تسأل نفسك أين الحكومة منا ؟ الحكومة التى تظهر فى التليفزيون والصحف وكأنها حكومة دولة عظمى ؟ أقسم بالله يا ابنى أن من يرى أو يسمع السادة وزراءنا ، يعتقد أن أفقر مصرى على أرض « مصر » يعيش مستورًا ، معززًا ، مكرمًا ، آمنًا على نفسه وعلى عرضه ، وضامنًا قوته ، بل ويفيض منه

طعامه ، بينما هاهى الحقيقة أمام عينيك .. مصريون .. مصريون من بطن «مصر» .. «مصر» أم الدنيا ، يعيشون معيشة العبيد .. يعيشون هم والفقر والذل والخوف والموت معًا فى زرائب قطط وكلاب السادة الذين يحكموننا تتأفف منها ..

وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

حسبنا الله ونعم الوكيل ..

★ ★ ★

الفصل الثامن

فى هدأة الساعات الأولى للفجر ، وعلى طريق «الأوتوستراد» شبه الخاوى فى هذه الساعات ، انطلق (ميدو) بسيارته وقد استحالت تفاصيل المشهد البائس التى شاهدها وسمعها الليلة فى منزل الحبيبة إلى نصال حادة تجز روحه ، وتفجر دهشته .. دهشته من قدرية الإنسان .. هذه القدرية التى تسحق البعض من بنى آدم تحت قدميها بمنتهى القسوة ، وترفع البعض الآخر فوق رأسها إلى عنان سماء النعيم ، مع أن الفريقين أخوة من أب واحد وأم واحدة وخالقهم واحد !! فهاهى أناس تعيش فى أفران الشقاء تشويهم ليل نهار .. منامهم مؤلم ، ولقمتهم مُرة ، وسعيهم عذاب ، وأحلامهم بالستر ـ مجرد الستر ـ سراب !! بينما أخوة لهم من نفس آدم وحواء يسبحون فى أنهار النعيم ترويهم ليل نهار .. منامهم هنىء ، ولقمتهم شهية ، وسعيهم متعة ، وأحلامهم رهن إشارتهم ،ولو كانت مستحيلة !! فما معنى هذا ؟! ما معنى أن يعيش هو شخصياً فى فيللا يتحاكى الناس بفخامتها ومخمليتها ، ويمتلك سيارتين من أحدث الموديلات ، وموبايلين من أحدث جيل ، ويحمل فى جيبه فيزا كارت بعشرات

الآلاف من الجنيهات لمصروفاته النثرية فقط ، بينما هناك شاب فى مثل سنه لا يجد مكانًا يؤويه .. لا يجد جدرانًا وسقفًا تقيه البرد والحر .. لا يملك ثمن وجبة طعام تشد عوده .. لا يملك طاقم ثياب واحد يحفظ له مظهره وكرامته ؟! وما معنى أن تعيش فتاة بكل هذه القيمة والرقة مثل (شيماء) فى هذا البؤس المريع ؟! ما معنى أن ألاّ تملك غرفة واحدة تمارس فيها خصوصيتها كبنت شابة ؟! أن لا تملك بابًا يُغلق عليها ويسترها وهى تبدل ثيابها ؟! أن لا تملك حمامًا آدميًا تمارس فيه نظافتها ؟! بينما فتاة أخرى فى نفس سنها ، الشقة ـ وربما الفيللا ـ والسيارة الشيك والشاليه والموبايل والفيزا كارت أساسيات فى حياتها ، وُلدت لتجدهم فى انتظارها ، وما عليها إلا أن تطلب ما تشتهى .. فما معنى ذلك ؟! وهل هناك حكمة وراءه ؟! فماذا تكون إذن ؟! ماذا تكون ؟!

وطغى غموض الأمر على الفتى ، وطغى معه إحساسه بالاختناق والألم حتى شعر وكأن روحه تُزهق منه ، فأسرع يرفع عينيه المخنوقتين إلى السماء ، وكأنه يتوسل إليها أن تكشف له ما شق عليه فهمه ، فإذا بقرآن الفجر آتيًا إليه من مكبرات مسجد السيدة (عائشة) عذبًا طريًا حانيًا ، مرددًا فى رفق « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » .

★ ★ ★

ومضت بـ (ميدو) ثلاثة أيام بلياليها وهو مذبوح بحالته النفسية التى غادر بها بيت حبيبته ، حتى كادت حياته تتجمد تمامًا من فرط غمه واكتئابه ، لولا سهرته التليفونية مع حبيبته كل ليلة .. شىء ما يمنعه من مقابلتها .. إنه عدم قدرته على تحديد دور واضح له تجاه مأساتها هى وأسرتها ..

وأعلنت دار الإفتاء المصرية عن ثبوت رؤية هلال (رمضان) ، وشاع فى الناس شىء من الفرحة ، خفف عنهم قدرًا من اكتئابهم الذى يصبغ قلوبهم من جراء التردى المحيق فى كافة نواحى معيشتهم ... من أزمة رغيف العيش حتى إعدامهم بالجملة بأيدى الإهمال والفساد .. ولكن (ميدو) ظل على حالته ، حتى انتبه له أبواه وشقيقه (باسم) ، فانبرى أبوه يسأله فى دهشة :

ـ (ميدو) ! هذا ثالث إفطار لنا معًا وأنت غير طبيعى .. ما الحكاية ؟

وكان جواب (ميدو) نظرة اختناق إلى أبيه ، زادت من دهشته :

ـ ماهذه النظرة يا (ميدو) ؟!

لم يجبه (ميدو) بل التفت إلى أمه يحدجها بذات النظرة ، لتفاجأ هى الأخرى ، وتسارع بسؤاله بمنتهى الدهشة :

ـ ماذا بك يا (ميدو) ؟!

وجاءها جواب (ميدو) فى أدب :

ـ أريد شقة .

فوجئ الأبوان ، وأسرعا يتبادلان نظرة دهشة ، عاد الأب بعدها يتطلع إليه متسائلاً بدهشته :

ـ شقة ؟!

وجاءه الجواب مؤكدًا :

ـ نعم يا بابا شقة .. شقة فى أية مدينة جديدة .

عادت الدكتورة تسأله بدهشتها :

ـ لمن يا (ميدو) ؟

ـ لأسرة تخصنى .

ـ إية أسرة ؟

ـ أسرة أعرفها فى « الدويقة » .

سقطت الشوكة بقطعة اللحم من يد الدكتورة ، وتسمرت نظرتها الزجاجية على وجهه :

ـ أسرة تعرفها فى « الدويقة » ؟!

ـ نعم .

تململ النمر المجنون المتحفز فى داخلها :

ـ تعرفها كيف يا (ميدو) ؟!

ـ ابنتهم صديقتى .

ـ صديقتك من « الدويقة » ؟!

واشتم (ميدو) رائحة شياط أمه ، ومع ذلك أجابها بنفس أدبه وهدوئه :

ـ نعم يا ماما ، صديقتى من « الدويقة » .

التفتت الدكتورة إلى أبيه ، متبادلة معه نظرة غيظ مكظوم تطالبه بها أن يصغى معها لما يقوله ابنهما ، ثم عادت بعينيها مرة أخرى إلى (ميدو) ، مواصلة استجوابه بدهاء وهدوء يخفيان تحفزها المتصاعد :

ـ ولكننى أعرف كل صديقاتك يا (ميدو) .

ـ هذه جديدة .

ثم أضاف بصدق :

ـ وأقربهن إلى قلبى .

رفعت حاجبها الأيسر فى تبسم إعجابًا وتشجعيًا له على مزيد من الصدق ، ثم عادت تسأله بابتسامتها المزيفة ، وكأنها تداعبه:

ـ وأين عرفتها هذه الجديدة يا متجدد دائمًا ؟

ـ فى ورشة رخام تعمل بها فى « الدويقة » وقد رأيتها حضرتك .

ضربت الدهشة الدكتورة :

ـ رأيتها ؟

ـ نعم يا ماما .

التفتت الدكتورة بجم دهشتها إلى أبيه ، فأسرع يسأل الفتى :

ـ أين رأتها يا (ميدو) ؟!

ـ هنا فى الفيللا يا بابا .

انفجرت الصدمة فى وجه الدكتورة ، فجحظت عيناها ببريق مخيف أفزع (إبراهيم فهيم) نفسه .. فهمَ بأن يقول لها شيئًا

يهدئها به ، فإذا بابتسامتها الداهية ترتسم فوق شفتيها ، وتعاود سؤال الفتى بنفس هدوئها .

ـ متى حدث هذا يا (ميدو) ؟

وكان جواب (ميدو) بنفس أدبه ، وهو يقرأ جيدًا ما بداخلها:

ـ حينما كانت فى زيارتى فى اليوم التالى لكسر قدمى .

ـ زيارتك هنا ؟!

ـ نعم .

أطرقت الدكتورة مفتشة فى ذاكرتها للحظة ، حتى تذكرت :

ـ الهيفاء ذات البدلة الجينز ؟

ـ نعم هى .

اعترتها الدهشة وهى تتذكر جمال وأناقة الفتاة وطريقة حديثها الراقية :

ـ أهذه من « الدويقة » ؟!

ـ نعم يا ماما ، من « الدويقة » .

قالها بزهو حزين يغمره الأسف ، بينما تسمرت عينا الدكتورة

على وجهه بنظرة حائرة بين الدهشة والصدمة ، ولكن تغلبت الصدمة فغمرتها ذهولاً :

ـ ودخلت هنا ؟!

ـ نعم .

ـ هنا فى فيللتى هذه ؟!

ـ نعم .

كيف يا حيوان ؟!

هكذا انطلقت القذيفة من فم الدكتورة فى غمغمة ذاهلة وهى تنهض واقفة ، محدقة فيه بنظرة مسعورة .. هاهو النمر المجنون الذى طال تقييده بداخلها ينطلق ، فتختفى ملامح الأمومة تمامًا من وجهها تحت طفح مخيف من السخط والغل .. وبُهت (ميدو) ، وتعلقت عيناه بها وهو ينهض أيضًا ، مرددًا بذهوله :

ـ ماما !!

ونهض (إبراهيم فهيم) مذهولاً هو الآخر ، ونهض (باسم) مذعورًا ، وبذهوله هم الأول بأن يفيق زوجته :

ـ دكتورة !

واستدارت إليه الدكتورة بذهولها ونارها التى تلتهمها :

ـ نعم .. نعم يا حضرة الأب المحترم .. أما سمعت ؟! أما سمعت ما قاله ابنك المحترم مثلك ! .

ثم استدارت مرة أخرى إلى (ميدو) ، متقدمة منه بنظرتها المسعورة :

ـ يا نهارك أسود ! يا نهارك أسود يا ابن (إبراهيم فهيم) ! دويقية هنا فى بيتى ؟! وفى غرفتك ؟! وتُعامل وكأنها هانم مهنمة ؟! ماذا كان ينقصها ؟! أخبرنى يا أستاذ (ميدو) ماذا كان ينقصها ؟ أن أقدم لها الشاى بنفسى ؟ أم أوصلها حتى باب الفيللا ؟

وإذا بها تستدير صارخة على الخادمتين :

ـ أنت يا نيلة يا (رشا) .. أنت يا (حنان) !

وأقبلت الخادمتان جريًا فى ذعر ، لتصرخ فيهما الدكتورة :

ـ هل سُرق شىء من الفيللا ؟

هنا فقط طار عقل (ميدو) ، فانطلقت صرخته :

ـ ماما ! كله إلا هذا !

وجاءه رد الدكتورة فى ذهول جنونى :

ـ ماذا تقول يا حيوان ؟

وانطلقت صرخة (ميدو) الثانية أشد من الأولى :

ـ أقول إن هذه الدويقية التى تنهشين لحمها هكذا قد تكون أشرف من كثيرات من هوانم قصور « المقطم » .

ـ يا ابن الـ .....

ولم تكملها الدكتورة ، بترتها صرخة (إبراهيم فهيم) الهادرة :

ـ دكتورة !!

وكان رد الدكتورة أن انقضت على (ميدو) بكلتا يديها ، وراحت تدفعه بمنتهى القسوة نحو الباب ، وهى تصرخ فيه بغل جنونى :

ـ أخرج من هنا ! أخرج ! لا أنت ابنى ولا أعرفك ! أخرج !! أخرج !!

وانفجر صراخ (باسم) بالدموع :

ـ ماما !! ماما !!

فى حين اندفع (إبراهيم فهيم) محاولاً تخليص (ميدو) من قبضتيها ، بينما الفتى نفسه مستسلمًا تمامًا لها ، إلا من نظرة تمزّق القلب احتشدت فيها الدموع والصدمة ، منعه أدبه حتى من تحريك يديه من جانبيه ، بينما فشل أبوه فى تخليصه منها ، حتى قذفت به خارج باب الفيللا ، وأسرعت بصفقه خلفه بغل شيطانى رهيب ، وحينما هم أبوه وشقيقه باللحاق به أسرعت تمسك بهما ، مهددة الأب :

ـ (إبراهيم) لا تجعلها فضيحة بجلاجل فى الحى كله !!

وأسقط فى يد الرجل !!

★ ★ ★

يااااه !

يااااه من ذبحة (ميدو) !

تكالبت عليه كل الأحاسيس الذابحة ..

إحساس بأن حبلاً ليفيًا غليظًا يعتصر عنقه ، يشنقه بلا رحمة ، يكاد يزهق روحه .. وإحساس بأن الهواء الذى يقتحم أنفه نافذ إلى صدره يحمل سخونة ورائحة شواء جهنم .. وإحساس

بأن قلبه صُب عليه قار أسود يغلى ، فعجنه .. طوفان من كافة أحاسيس العذاب غمره وهو ينطلق بسيارته ملتهمًا الأسفلت ، لا يكاد يبصر شيئًا من الطريق .. انمحت من أمام عينيه كل المرائى ، ولم يبق أمامهما سوى مشهد أمه وهى تقبض على عنقه بكلتا يديها ، وتدفعه إلى خارج الفيللا .. أمه الحبيبة ! أمه التى كانت تخاف عليه من النسمة الطائرة !! التى كان قلبها ينخلع فزعًا عليه لو ارتفعت حرارته درجة واحدة !! التى كانت تعتصره فى حضنها عصرًا حينما كان يعود إليها بعد غياب أيام معدودات فى رحلة مع أصدقائه !! أمه حبيبته هذه كيف انقلبت هكذا ؟! كيف توحش قلبها هكذا ؟! كيف ماتت أمومتها فى لحظة هكذا ؟! وهل هناك فى هذا الكون ما يستطيع أن يفعل هذا بقلب أم ؟! قلب الأم الذى لم يهن عليه تعثر ابن جاحد قتل أمه ، فصرخت حين تعثر بها وهى جثة فوق ذراعيه « ولدى » !! حتى قلب الأم ذهبت أيام السوء هذه بخيره .. ارحمنا يارب !!

هكذا انطلقت صيحة الفتى المذبوح من قلبه وهو يرفع عينيه الدامعتين إلى السماء دون أن ينتبه إلى ضغطة قدمه على فرامل السيارة فجأة وبمنتهى القوة ، من ستر الله أن الطريق خلفه كان خاليًا من السيارات فى هذه اللحظة .. تلفت حوله بعينيه الذاهلتين

الدامعتين وهو يلهث من شدة الاختناق .. أين يذهب؟ أين ؟ رددها فى نفسه صراخًا مستغيثًا ، وكأنه تائه فى كوكب خاو مهجور ، خاو حتى من الهواء ، وهم بأن يعاود ترديدها فإذا بصوت يهبط على قلبه كأنه دفقة من فرات الجنة .

ـ (ميدو) !

التفت فإذا بـ (شيماء) تجلس بالمقعد الخلفى لتاكسى يقف إلى يساره !! تسمرت عيناه الدامعتان عليها بدهشة الحائر بين النوم واليقظة ، فإذا بها تناول سائق التاكسى أجرته ، وتقفز إلى جوار (ميدو) هاتفة به بابتسامة فرحتها :

ـ ماهذه الصدفة السينمائية يا عم الشقى ؟!

وإذا بها تنتبه إلى دموعه وارتياعه المصلوب على وجهه ، فتسرع باحتضان وجهه بكفيها ، هاتفة به بمنتهى الجزع :

ـ ميدو ! حبيبى ! ماذا بك ؟

وانتبهت إلى وقفة السيارة بمنتصف الطريق ، فأسرعت تهتف به :

ـ اركن يا (ميدو) ! اركن !

ولكن (ميدو) كان أبعد كثيرًا من أن يسمعها .. إنه ما زال غارقًا فى دهشته وهو يحدّق فيها لا يدرى إن كانت حلمًا أم حقيقة ، ولكنه سرعان ما أفاق ، وأدرك أنها حقيقة من دموعها التى انسابت من عينيها قلقًا عليه ، فإذا به يسرع بضمها فى حضنه هاتفًا بذهوله وقلبه ينتفض داخل صدره كعصفور مرتاع :

ـ تتزوجيننى يا (شيماء) ؟!

★ ★ ★

الفصل التاسع

فوجئ (سعيد عمر) و (كريمة) بـ (ميدو) يقتحم عليهما الغرفة قابضًا بيده على يد (شيماء) وهما يلهثان من الجرى ، هاتفًا بهما دون أن يجلس ، أو حتى يلقى عليهما السلام :

ـ عم (سعيد) ! يشرفنى أن أطلب منك يد (شيماء) !!

وبُهت (سعيد عمر) ، وتعلّقت عيناه الواسعتان بعينى الفتى بنظرة المفاجأة ، ثم التفت إلى (كريمة) ،فإذا بعينيها القويتين متسمرتان على وجه الفتى بدهشة أشد من دهشته .. عاد ينظر إلى ابنته المقبوض عليها فى قبضة الفتى ، فإذا بذهولها هى الأخرى يغشاها وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة .. بدا واضحًا أن الفتى جاء بها جريًا من « الأتوستراد » حيث يترك سيارته .. وبذكائه العالى استوعب (سعيد عمر) المشهد وما وراءه ، فكان جوابه للفتى بصوته الضخم الحنون ، وهو يقرب منه وسادة كانت فى متناول يده فوق الحصيرة :

ـ تعال يا (ميدو) .. اجلس هنا بجوارى .

أطاع (ميدو) الرجل .. جلس إلى جواره ، ولكن دون أن يترك يد (شيماء) ، وكأنه مفزوع خوفًا من أن تضيع منه ، وجلست حبيبته إلى جواره مستسلمة ومشفقة عليه من انفعاله ، وكم بدت باستسلامها له وإحساسها به عصفورًا رقيقًا نديًا حنونًا ، يمتلئ قلبه حنانًا ما بعده حنان ... وأخذ المشهد (كريمة) ، فتسمرت عيناها على وجه الفتى بنظرة متفرسة طويلة ، ثم نزلت بنظرتها إلى يده القابضة على يد ابنتها ،ثم أطرقت إلى الأرض مبتسمة .. ابتسامة تعجب من تصاريف القدر ، لا ابتسامة فرحة أو موافقة .. فنفس هذا المشهد سبق أن عاشته قبل سبعة وعشرين عامًا .. الفرق الوحيد بين المشهدين أن أباها لم يكن (سعيد عمر) الطيب الحنون الحكيم ، بل كان (عيسى أبو راضى) بكل جبروته وجنونه ، والذى كان رده على (هاشم) ابن الحاج (عبد القوى) تاجر الخضار الكبير بسوق « روض الفرج » وقتها حين دخل عليه نفس الدخلة ، قابضًا على يد (كريمة) ، أن أدخل (هاشم) غرفة وأغلقها عليهما ليقوم بتوثيقه وطحنه بعلقة موت لتجرئه عليه وعلى ابنته بهذا الشكل ، ولينتهى المشهد فى ذلك الزمن البعيد بحبس (عيسى أبو راضى) شهرين مع الشغل ، وذهاب (هاشم) بلا عودة .. هكذا ومض المشهد فى ذاكرة (كريمة)

وهى مطرقة إلى الأرض بابتسامتها الدهشة ، والتى مالبث أن انتبهت منها على صوت (سعيد عمر) الحنون :

ـ الشاى يا (أم أحمد) .

ثم استدار إلى (ميدو) ، فإذا بالفتى يبادره متسائلاً بلهفته :

ـ ها ياعم (سعيد) ! ماذا قلت ؟

وأشعل (سعيد عمر) سيجارة بتأنيه الأصيل فيه ، وهم بأن يجيبه ، فإذا بـ (ميدو) يسبقه قائلاً :

ـ قبل أن تجيبنى يا عم (سعيد) أحب أن أنبهك إلى شىء أنت والخالة (كريمة) صحيح أنتم ناس على باب الله ، وظروفكم صعبة ، ولكنها ظروف مادية لا أكثر ، أما من ناحية القيمة ، فإذا حدث فعلاً وقارنت نفسى بـ (شيماء) فسأجدها هى الأعلى .

ومضت الدهشة على وجه (سعيد عمر) و (كريمة) ، بينما استطرد (ميدو) قائلاً :

ـ هذه ليست مجاملة منى يا عم (سعيد) ، وليست كلمات خُطب كالتى تُقال فى مثل هذا الموقف ، بل هى حقيقة قاطعة سأطرحها عليكما بسؤالين محددين .. الأول بماذا تصفان بنتًا فى جمال (شيماء) تعمل أكثر من عشر ساعات يوميًا مقابل بضعة

جنيهات تافهة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بينما آلاف من فتيات أقل منها جمالاً تكسب الواحدة منهن مئات الجنيهات يومياً من بيع نفسها ، وما أسهل ذلك وما أكثره فى مجتمعنا الآن ؟

والسؤال الثانى يا عم (سعيد) أنت والخالة (كريمة) ، بماذا تصفان فتاة وجدت نفسها فى بيئة وظروف لا تؤدى إلا إلى الضياع المؤكد ، ومع ذلك تنجح فى أن تجعل من نفسها فنانة يتباهى بها أكبر أكابر البلد ؟

وصمت الفتى ناقلاً بصره بين الأبوين ، متطلعًا إلى جوابهما ، ولكن سرعان ما داهمه خاطر بأنهما ربما يريان فى كلامه مجرد محاولة لانتزاع موافقتهما ، فإذا به يسرع بالقذف بمعادلة عجيبة فى حجرهما :

ـ اسمعا هذه جيدًا يا عم (سعيد) أنت وخالة (كريمة) وتدبراها .. أنا عندى اثنتان ، الثراء والمستوى الاجتماعى ، بينما (شيماء) عندها ثلاث .. الجمال ، والضمان بصون شرفى ، ومكانتها كفنانة .. الأولى لها ثمن ، والثانية لا تقدر بثمن ، والثالثة تعلو بها فوقى ..

وبهت الأبوان ، وعادا يتبادلان نظرة الدهشة ، ثم عادا يتطلعان بدهشتهما الطاغية إلى الفتى ، فإذا به ينهيها بقوله :

ـ وفوق هذا كله يا عم (سعيد) ويا خالة (كريمة) إننا أنا و (شيماء) نحب بعضنا ، وإذا حرمتمونا من بعضنا ، فسوف نضيع نحن الاثنان .. وحكمتك يا عم (سعيد) وبصيرتك ، وطيبة قلبك يا خالة (كريمة) لن تجعلكما أبدًا تضيعاننا ، ولن تجعلنا نهون عليكما .

وانسابت الدموع من عينى الفتى ، ليخفق قلب الأبوين بشدة ، ولتقول له (كريمة) بكل ما فى قلبها من حنان :

ـ تعال فى حضنى يا حبيبى .

★ ★ ★

فى منزل (عمرو فلفل) القابع بآخر عزبة (حمادة) بـ(المطرية) مطلاً على آخر قطعة أرض زراعية من حقول المطرية الريفية القديمة ، وبين أفراد عائلته الكبيرة العدد ـ أبوه الحاج (سعد اللبان) ، خفيف الظل ، الضاحك دائمًا رغم تجاوزه السبعين من عمره ، وأشقاؤه وزوجاتهم ، وشقيقاته وأزواجهن وأطفالهم ـ يشعر (ميدو) بأنه فى بيته ، وبين أهله الحقيقيين .. فالبيت يرتفع إلى خمسة طوابق فوق ما يزيد على المائتين والخمسين مترًا مربعًا ، وتغمره رائحة العز .. وتكسوه الفخامة الهادئة العذبة المريحة للنفس ، فخامة دافئة بالأصالة ، وليست

كتلك الفخامة الباردة بالحداثة المبهرجة التى تجمّد الإحساس فى قصور هذا الزمان .. وأهل البيت ناس طيبون صالحون ودودون ، قلوبهم دافئة مثل بيتهم .. والبيت وأهله هم آخر المتبقى من ريف « المطرية » الجميل قبل أن تلتهمه أنياب العاصمة محيلاه إلى حى شعبى عشوائى فاتحًا أبوابه على مصاريعها للغرباء من كل حدب وصوب ، ودون تمييز بين نبيل ووضيع ، قافزًا بتعداد سكانه إلى ما يزيد على الأربعة ملايين نسمة ، ومبيدًا بعشوائيته هذه كل ماهو أصيل وجميل فيما عدا هذا البيت وأهله ورائحته الطيبة .. ومن هنا كانت راحة (ميدو) النفسية الغامرة التى تنتظره دائمًا فى هذا البيت وبين أهله ، ومن هنا كانت إقامته الدائمة فى هذا البيت ، حتى إنه صارت له غرفة مخصصة له ملاصقة لغرفة (عمرو) !! هذا الفتى الذى يشبه بالضبط ماسة خام لم تلوثها يد بشر .. وأكبر دليل على نفاسة معدنه هو ذلك الموقف البعيد الذى جمعه بـ (ميدو) لأول مرة منذ خمس سنوات تقريبًا .. ففى ذات ليلة شتوية ممطرة .. كان (ميدو) يمضى بسيارته فى شارع ترعة الجبل الذى يشطر « المطرية » نصفين .. « المطرية الشرقية » و « المطرية الغربية » ـ وفى الجزء الأخير من الشارع من ناحية « عين شمس» ، الذى يبدو مهجورًا دائمًا لخلوه من المنازل ، فوجئ (ميدو) بحجرين ضخمين يقطعان الشارع ،

فتوقف ونزل بعفوية كى يزيحهما من الطريق ، فإذا بثلاثة شباب من قطاع الطرق ، يحاصرونه بالأسلحة البيضاء ، آمرينه بإخراج ما معه .. وهمَّ (ميدو) بأن يطاوعهم ، لا جُبنًا منه ، ولكن لإدراكه أن ضربة مطواة واحدة كافية لضياعه ، من هنا بدأ بمد يده لهم بالموبايل ، فإذا بمفاجأة تُبدّل الموقف تمامًا .. سطعت فجأة أضواء سيارة ، ودوّت فى الهواء بضعة طلقات نارية ، تصحبها صيحة شبابية عفية :

ـ مكانك أنت وهو !!

وفى لمح البصر كان المجرمون الثلاثة قد اختفوا تمامًا ، ليظهر (عمرو) مقتربًا من (ميدو) بطبنجته ، حتى وقف أمامه يسأله بمنتهى الحنان :

ـ أخذوا شيئًا منك ؟

ولم يستطع (ميدو) أن يجيبه بكلمات من هول الموقف ، ولكنه أومأ له نفيًا برأسه .

ـ إذن اركب سيارتك وتوكل على الله .

قالها (عمرو) وهو يمضى إلى الحجرين يزيحهما من أمام السيارة ، ثم التفت إلى (ميدو) ، فإذا به مازال متسمرًا فى مكانه

بجوار السيارة ، وهو يحدق فيه بنظراته الدهشة ، فلم يملك (عمرو) إلا أن يرتد إليه متسائلاً بدهشة :

ـ ماذا هناك يا باشا ؟!

ـ اسمى (محمد فهيم) .

قالها (ميدو) وهو يريد أن يعانق الفتى ، لا لتصرفه الذكى مع اللصوص ، ولكن لطيبته التى تجعله يرفع الأحجار هكذا ، رغم أنهما شابان فى سن بعضهما تقريبًا .. وقرأ (عمرو) بفطنته ما بداخل (ميدو) فكان جوابه بابتسامة حلوة دافئة :

ـ (عمرو) .. (عمرو فلفل) ..

ـ ممكن أدعوك إلى كوب شاى ؟

وكان رد (عمرو) بنفس ابتسامته :

ـ ممكن ، ولو أن زبائنى أحبائى فى انتظار اللبن الآن .

ـ أى لبن ؟!

ـ أنا لبَّان .

وأشار إلى سيارته النصف نقل ، مستطردًا :

ـ وهذه سيارتى أوزع بها اللبن على محلات الألبان .

وهكذا كانت البداية التى قادت الشابين ، الأرستقراطى وابن البلد إلى صداقة يندر وجودها فى زمن الجنيه هذا ..

★ ★ ★

فتحت (قمر) شقيقة (عمرو) باب الشقة لتَفاجأ بـ (ميدو) أمامها .. انبثقت فرحتها فى قلبها ووجهها .. إنها آخر العنقود فى عائلة (عمرو) .. طالبة فى كلية تجارة «عين شمس» .. جمالها العذب مع شقاوتها مع دلالها كآخر العنقود تجعلها كقط سيامى جميل يغزو القلب بدون استئذان .. وهى و(ميدو) صديقان يلتهمان بعضهما بشقاوتهما ، وهو ما يملأ منزل الحاج (سعد) بهجة كلما اجتمعا به معًا .. ولكن ها هى (قمر) تفاجأ بـ(ميدو) آخر غير الذى تعرفه ... وجهه مطفأ محتقن ، يمسحه الغم مسحًا .. وعيناه غائمتان حمراوان كعينى محتضر يوشك على الرحيل .. انفلتت هتفة الجزع من (قمر) بمجرد رؤيتها له بهذه الحال :

ـ (ميدو) ! ماذا بك ؟!

ولم تنتظر منه جوابًا ، أخذته من يده :

ـ تعال !

وبغمه سألها وهى تجرجره من يده :

ـ أين (عمرو) ؟

ـ فى السوق .

ودخلت به إلى الصالون العربى المفروش فقط بالسجاد الأحمر الفاخر ، ووسائد الفايبر التركوازية .. كان الحاج (سعد) يجلس فوق إحداهما فى صدر الصالون ، شاردًا فى ملك الله مع مسبحته الكريستالية الزرقاء ، ولكن ما إن هلّت عليه « قمر » ممسكة بـ (ميدو) حتى انسابت ابتسامته الصغيرة الرصينة .. فى أعماق قلبه يتمنى لو كانا لبعضهما .. يراهما فولة وانقسمت نصفين فى روحيهما الصافيتين الحلوتين ، وفى طبيعتهما وذكائهما واشتعال شبابهما ، وفى أشياء أخرى كثيرة ، ولكن ماذا يفعل أمام سلطان القلوب الذى قضى بألا يكونا إلا فى حكم الشقيقين .. بادر الشيخ السبعينى الجليل (ميدو) بابتسامته الطيبة الحانية :

ـ أهلاً (ميدو) حبيبى .. تعال !

وأقبل عليه (ميدو) مقبلاً يده ، ثم جلس إلى يمينه ، وهمّت (قمر) هى الأخرى بأن تجلس أمام الفتى ، فإذا بأبيها يسبقها قائلاً ببشاشته وحنوه :

ـ ماهذا يا (قمر) ؟! هل ستجلسين أمامه دون أن تسأليه عما سيأكل أو يشرب ؟!

ولكن (قمر) كانت قد جلست بالفعل ، وكان جوابها وهى تتفرس وجه (ميدو) بنظراتها القلقة :

ـ لا يابابا .. لا طعام ولا شراب .. أما ترى وجهه ؟ أسمع الأول منه ما فعل به هذا .

والتفتت إلى (ميدو) بقلقها :

ـ ها يا (ميدو) .. تكلم .

وتكلم (ميدو) وهو يبعثر نظراته على وجهها فى ذهول ومرارة :

ـ مذبوح يا (قمر) .. مذبوح .

وراح يفرغ لهما كل ما فى صدره ، حتى إذا ما انتهى ، كان الغم يطبق عليهما هما أيضًا وكان الحاج (سعد) يتمتم فى أسى :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم أردف وكأنه استوثق من حقيقة :

ـ الدنيا لا تكتمل لأحد .

وإذا بجواب (قمر) فى استنكار :

ـ الدنيا فى أيدينا يابابا .

ثم التفتت إلى (ميدو) ، قائلة بمنتهى الحسم :

ـ تزوجها يا (ميدو) .. تزوجها .

ثم نظرت إلى أبيها مستطردة :

ـ وإذا كان على تكاليف زواجكما لا تحمل هماً .

ـ وكان جواب الحاج (سعد) بمرارته :

ـ المشكلة ليست فى المال يابنتى .

ـ فيم المشكلة إذن يابابا ؟

ـ المشكلة فى عدم رضا أمه .

وجاءه رد (ميدو) سريعًا كصرخة دهشة وألم :

ـ أليس من حقى أن أتزوج من أحبها يا حاج (سعد) ؟!

ـ طبعًا يابنى من حقك ، ولكن لأمك أيضًا عليك حق .

ـ وهل من حقها أن تحرمنى من سعادتى ؟! هل هذا عدل ؟!

ولم يملك الحاج (سعد) إلا أن يبتسم فى إشفاق ، ثم يسأله :

ـ وهل من العدل يابنى أن تستبد برأيك ؟

ـ إنه زواج يا حاج (سعد) .. زواج .. أى أمر يخص طرفيه فقط .

ـ وماذا إذا كان هذا الأمر سيتسبب فى تعاسة طرف ثالث ؟ هل سيسعد الطرفان وقتها ؟

ـ وماذا إذا كان الطرف الثالث هذا ظالمًا ؟

ـ ومن يقطع بأنه ظالم يابنى ؟

وهم الفتى بأن يجيبه ، ولكن الشيخ بدا وكأنه ضاق بجداله ، فأسرع يوقفه فى رفق :

ـ اسمع يابنى ! أنا رجل مسن ، أقف على عتبة الدنيا ، ولا يليق بشيخوختى أبدًا أن أقطع برأى فى مشكلة سمعت لطرف واحد منها .. وهذا بخلاف أن الطرف الآخر فى مشكلتك هو أمك .

وأطرق الشيخ بعينيه مرددًا فى أسف :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

★ ★ ★

الفصل العاشر

عاد (عمرو) من عمله مع انتصاف الليل .. فوجئ بـ(ميدو) ، وعلم بما حدث معه من (قمر) .. أرغمه على تناول إفطاره الذى كان عازفًا عنه ثم انفرد الثلاثة فى غرفة (عمرو) ، حيث جلسوا متربعين فى دائرة فوق الفراش فى شبه اجتماع طارئ ، افتتحه (عمرو) بسؤاله لـ (ميدو) :

ـ المشكلة وعرفناها يا (ميدو) .. ماذا تريد الآن ؟

وجاءه رد (ميدو) سريعًا هادئًا حاسمًا :

ـ أريد أن أتزوجها .

ـ والدكتورة ؟ و (إبراهيم) بك ؟

ـ سأضعهما أمام الأمر الواقع .

تفرسه (ميدو) بنظرة عميقة ، ثم التفت إلى (قمر) مستطلعًا رأيها ، فإذا بجوابها على الفور :

ـ خطأ .

وفوجئ (ميدو) :

ـ خطأ ؟!

ـ نعم يا (ميدو) خطأ .. خطأ كبير فى حالتك أنت تحديدًا حتى ولو كان صوابًا فى كل الحالات المشابهة .

ـ وما الشاذ فى حالتى ؟!

ـ الشاذ فى أنك ابن اثنين من أعلام المجتمع ، شخصيتان عامتان لا تكاد تخلو وسيلة أعلام من أخبارهما يوميًا ، وهما مثل كل الشخصيات العامة لهما معارضون وخصوم ، وتصرف كهذا منك سيكون سلاحًا فى أيدى معدومى الضمائر منهم ، ولن يتورعوا عن استخدامه وقت اللزوم ، فهل تقبل على نفسك أن تكون سببًا فى طعنة كهذه لأعز الناس إليك ؟

وبُهت (ميدو) وإذا بـ (عمرو) يكمل عليه :

ـ وأنا مع (قمر) فى هذا يا (ميدو) ، ونحن نعلم أن أية ناس غيرنا كانوا سيوافقونك على زواجك بهذه الطريقة فى هذا الموقف ، ولم لا ؟ إذا كانت البنات تفعلها فى أى موقف كهذا ، وتضعن ذويهن أمام الأمر الواقع ، أفلا يفعلها رجل ؟ ولكنك لست أى رجل يا (ميدو) .. أنت من ناحية أخونا ، ويستحيل أن نوافقك

على شىء يضرك ، ومن ناحية أخرى أنت ابن ناس عاليين جداً ، ويحبونك جداً جداً ، ولا يستحقون منك أن تطعنهم طعنة كهذه .

وارتج عناد (ميدو) ، وراح ينقل عينيه بينهما مشدوها :

ـ ما معنى هذا ؟ هل تطلبان منى أن أتخلى عن البنت الوحيدة التى اختارها قلبى ، والتى بعثنى القدر طوق نجاة لها ؟

وكان رد (قمر) سريعًا صادقًا :

ـ لا يا (ميدو) ، لم نقصد هذا ، ولا نقبله منك .

ـ ماذا تقصدان إذن ؟

ـ نقصد أن تفعل ما تريد برضا ، والديك .

ـ هما غير راضيين بالمرة .

ـ سيرضيان يا (ميدو) .. سيرضيان .

ـ كيف يا (قمر) ؟

ـ بالوقت يا (ميدو) .

ـ الوقت ؟!

ـ نعم يا (ميدو) الوقت ... قرأت مرة عن الرئيس (جمال عبدالناصر) الله يرحمه ، أنه عندما كانت تواجهه أزمة

مستعصية على الحل كان يتركها جانبًا تمامًا ، وعندما كان مساعدوه يسألونه عن تفسير لذلك ، كان يجيبهم بأنه تركها للجنرال « وقت » ليحلها .. أى أنه كان يعتبر الزمن جنرالاً قادرًا على حل أية مشكلة مهما استحكمت عقدتها .

ولم يحتمل (ميدو) نظريتها الباردة هذه ، ووجد نفسه يهتف فيها باختناق :

ـ يا (قمر) .. يا (قمر) .. نحن هنا أمام أزمة حب وليست أزمة سياسية .. أزمة كل لحظة فيها تقتل طرفيها لهفة... فكيف نتركها للوقت ؟ كيف ؟!

وجاءه رد (قمر) سريعًا :

ـ أنت أصلاً محتاج لهذا الوقت يا (ميدو) لكى تفعل شيئًا مهما جداً لحبيبتك نفسها .

وهم (ميدو) بأن يسألها عما يكون هذا الشىء فإذا بها تسبقه بسؤالها :

ـ أما فكرت يا (ميدو) فى الخطوة التالية مباشرة فى حالة موافقة والديك على زواجكما ؟

ـ وهل هذه تحتاج إلى تفكير ؟ كنت سآخذهما لطلب يدها من أبويها .

ـ تأخذهما أين ؟ عشش الدويقة ؟!

حجر وضرب (ميدو) فى وجهه ، فتسمرت عيناه بنظرة المفاجأة على وجه (قمر) ، بينما فهم (عمرو) ما تريد أن تصل إليه ، فلمعت عيناه هاتفًا :

ـ برافو يا (قمر) .. برافو .

والتفت إلى (ميدو) :

ـ أما فهمتها يا (ميدو) ؟ ننتشلها هى وأسرتها من هذا الوباء أولاً .

وجاءه سؤال (ميدو) بدهشته :

ـ كيف ؟

ـ ننقلهم فى شقة مشرَفة .

ـ ولكن ..

أسرعت (قمر) تبسّطها له :

ـ شقة إيجار بالقانون الجديد فى حى معقول .

وأسرع (عمرو) يزيدها تبسيطًا له :

ـ مدينة « ٦ أكتوبر » أو « العبور » مثلاً :

وتلاشت غشاوة (ميدو) تمامًا وراح ينقل عينيه بينهما بصحوته وفرحته :

ـ كيف فاتتنى هذه ؟!

وجاءه رد (قمر) سريعًا باسمًا .

ـ أنانية الحب يا صديقى .. كل ما كان يشغلك هو سعادتك أنت فقط .

والتفتت إلى (عمرو) متبادلة معه نظرة فهمها ، عادت بعدها تنظر إلى (ميدو) ، ممسكة بيده وقائلة له :

ـ معى فى دفتر توفيرى خمسة وثلاثون ألفًا .

وفوجئ (ميدو) :

ـ قمر ؟!!

وإذا بـ (عمرو) هو أيضًا ينظر إليها قائلاً فى تبسم :

ـ أما بقيت إلا قطط حواء تصرف على الرجال ؟!

وإذا برد (قمر) على الفور فى تحفز :

ـ أنا لست قطة يا فلفل أخضر أنت .. أنا أرجل منكما أنتما الاثنان .

ولم يملك (ميدو) إلا أن يتدَخل ، قائلاً لهما بفيض امتنانه :

ـ أحبائى .. أنا معى فى البنك ما يكفينى ويزيد .

ثم نظر إلى (عمرو) قائلاً :

ـ غدًا لا تعد يا (عمرو) إلا بعقد أجمل شقة فى « أكتوبر » أو « العبور » .

ـ أمرك يا برنس .

والتفت (عمرو) إلى (قمر) ، قائلاً بابتسامته :

ـ والآن .. ممكن نبدأ سهرتنا الرمضانية الحلوة يا (قمرى) ؟

ـ أأمر يا أحلى فلفل .

ـ ثلاثة شوب « نسكافيه » ماركة « قمر » ومعها الطاولة حتى تحضَرى السحور .

ـ حالاً يا فلفلتى .

وقفز القط السيامى الشقى مغادرًا الغرفة جريًا .

★ ★ ★

مع آذان عصر اليوم التالى كان (عمرو) يدخل على (ميدو) غرفته قائلاً :

ـ (ميدو) حبيبى ! عقد أجمل شقة فى مدينة « العبور » جاهز على توقيعك فى مكتب السمسار .

وما كاد يتمها حتى كانت (قمر) تدخل عليهما قائلة لـ(ميدو) فى توجس :

ـ باباك ومامتك فى الصالون يا (ميدو) .

وخرج (ميدو) إليهما .. كانا يجلسان مع الحاج (سعد) فى الصالون المؤثث بانتريه ضخم شديد الفخامة ، يعطى إحساسًا طاغيًا بالعظمة ، حتى أن الدكتورة (لميس الجوهرى) لم تستطع كبت نظرة إعجابها به ، وكادت تسأل الحاج (سعد) عن مصدره لولا تكبرها المرضى .. نهض الحاج (سعد) مستأذنًا فى الانصراف ، ومضى منصرفًا مع (قمر) و (عمرو) ، تاركًا (ميدو) مع والديه .. جلس (ميدو) قبالتهما مسددًا نظراته الممرورة إلى الجدار المقابل له ، بينما بادره أبوه قائلاً فى حنين شديد واجم :

ـ إزيك يا (ميدو) ؟

وجاءه رد (ميدو) أكثر وجومًا ، دون أن يزحزح عينيه عن الجدار :

ـ الحمد لله .

بينما ظلت الدكتورة تتأمله بنظرة طفحت بكل ما فى قلبها من حنين الأمومة الجارف يزاحمه إحساس عات بالندم على فعلتها ، حتى استطاعت أن تنطق فى انكسار :

ـ أنا آسفة يا (ميدو) .

ووجد (ميدو) نفسه يلتفت إليها بنظرته الممرورة ، فلم تملك إلا أن تردف قائلة بنبرتها المؤلمة :

ـ سامحنى يا حبيبى .. أنا آسفة .

وهنا لم يملك (إبراهيم فهيم) إلا أن يداعب (ميدو) قائلاً :

ـ انتبه يا فتى ! إنها الدكتورة (لميس الجوهرى) تعتذر !

وكأنها الوخزة التى ثقبت مرارة (ميدو) .. انفلت رده كظيمًا ساخطًا :

ـ وهذه هى مشكلتى مع حضرتها يابابا .. إنها تعاملنى

كمسئولة كبيرة كل ما يهمها هو منصبها ، لا كأم سعادة ابنها فوق أى اعتبار .

وكان رد الدكتورة سريعًا ، وبمنتهى الألم :

ـ لا يا (ميدو) .. لا .. لا تظلمنى هكذا يا ابنى .. ليس هناك أم على ظهر الأرض تستطيع أن تقدم شيئًا مهما استعظم على أمومتها .

ـ إذن بماذا تفسرين ما فعلته بى يا أمى العزيزة ؟

ـ حبى لك يا (ميدو) .

ضربته الدهشة :

ـ حبك لى يدفعك لأن تدمرينى ؟!

وأردف ساخرًا :

ـ حقًا ، من الحب ما قتل !

وكادت دموع الدكتورة تنساب من عينيها ، وهى تقول له :

ـ لو كنت مكانى يا ابنى لأدركت أن حبى لك يدفعنى إلى المحافظة عليك ، لا إلى تدميرك .

وانفلتت ابتسامة (ميدو) الساخرة :

ـ كيف أفهمها هذه يا حضرة الدكتورة ؟!

ـ تفهمها من هذا .

وإذا بها ترفع يدها بملف كانت ممسكة به منذ دخولها ، ولكنه لم ينتبه له ، فكان سؤاله ،وهو ينظر إلى الملف فى دهشة :

ـ ماهذا ؟!

انظر فيه وسوف تعرف .

ومدت يدها له به ، فتناوله منها وهو يتطلع إليها فى توَجس ، ثم فتحه وراح يطالع ما فيه ، حتى إذا ما فرغ رفع عينيه عنه فى اختناق ، فكان سؤال الدكتورة له فى إشفاق :

ـ والآن ما رأيك يا (ميدو) ؟

وإذا بالرد قاطعًا حاسمًا :

ـ سأتزوجها .

بُهتت الدكتورة ، وانفلتت هتفتها الذاهلة :

ـ تتزوجها ؟!

ـ نعم .

ـ رغم هذا الذى قرأته ؟!

ـ رغم أى شىء .

كاد نمرها المجنون إياه يتحرك بداخلها ، لولا أن (إبراهيم فهيم) أسرع يمسك بيدها قائلاً فى رجاء :

ـ دكتورة ! نحن فى بيت ناس غرباء .

وقبضت الدكتورة على نمرها الأحمق ، فخرج سؤالها لـ(ميدو) فى هدوء كاظم :

ـ أوكيه (ميدو) تتزوجها ، ثم ماذا بعد ؟

نظر إليها (ميدو) مستفسرًا عما تعنيه ؟ فكان جوابها :

ـ ثم تنجب منها طفلاً ، أليس كذلك ؟

هم (ميدو) بأن يجيبها ، ولكنها لم تمنحه الفرصة ، واستطردت متسائلة :

ـ من سيكونان جديه لأمه ؟ (سعيد عمر) و (كريمة) المسجلين لدى المباحث ؟ ومن سيكون خاله ؟ (أحمد) المسجل خطر سرقة بالإكراه ونصب وتعاطى مخدرات ؟!

وهوت الصدمة على رأس (ميدو) ، وتعلقت عيناه بأمه مشدوهًا للحظة ، ولكن صورة الحبيبة الفنانة الجميلة وهى

تتوسط وجهاء المجتمع فى « ساقية الصاوى » سرعان ما قفزت أمامه لتنتشله من صدمته ، فإذا به يجيب أمه بمنتهى القوة :

- هى غيرهم يا ماما .. غيرهم .

- ولكنها منهم يا ابنى .

ووجد (ميدو) نفسه يلتفت إلى أبيه وكأنه يستغيث به ، فإذا بجواب الأب فى حنو :

- هذه حقيقة يا (ميدو) .. ونبينا عليه الصلاة والسلام ينصحنا قائلاً : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

وشعر (ميدو) بأن صاعقة هوت عليه تريد أن تلتهمه ، فإذا بنفس صورة الحبيبة التى تثير أشد الفخر تسرع بإنقاذه مرة أخرى ، فأسرع يقول لوالديه بمنتهى الزهو :

- لو رأيتموها .. لو عاملتموها .. لو عرفتوها حقًا لتأكدتم أنها ليست منهم .

ثم إذا به يردف متسائلاً بذروة انفعاله :

- وحتى إذا كانت منهم ، فما ذنبها ؟ هل اختارتهم ؟ هل كانت تملك حق الاختيار بينهم وبين غيرهم ؟ هل اختارت أن تكون من بيئة كهذه ؟ ألم تولد مثلنا جميعًا قطعة لحم بريئة لا تملك من أمرها

شيئًا ؟ فعلام نؤاخذها ؟ على قدر هو نفسه أنصفها فجعلها من خيرة بنات « حواء » ؟

ثم نظر إلى أمه بنظرة عتاب شديدة المرارة مستطردًا بجم مرارته :

- وحضرتك يا دكتورة .. يا حاملة العلم ويا مسئولة عن التراحم بين الناس ، ماذا أقول لحضرتك ؟ سعيت وراء هذا الملف الذى لم يرد لها فيه ذكر ولم تسعى وراء حزمة ملفات تعترف بأنها زينة من زينات المجتمع ومفاخره ؟ ملفها فى وسائل الإعلام التى تتباهى بها .. ملف جوائزها التى فازت بها .. ملف اعترافات كبار فنانى « مصر » بموهبتها .. ملف تباهى وجهاء المجتمع بها .. لو كنتم شاهدتموها وسط هؤلاء الوجهاء فى معرضها بـ « ساقية الصاوى » .. لو كنتم شاهدتم كيف كانت وسائل الإعلام تتسابق إليها .. لو كنتم شاهدتم تهافت الجمهور والنقاد على إبداعها .. لو كنتم شاهدتم شيئًا واحدًا من ذلك لتغيرت نظرتكم هذه إليها ، ولتغير موقفكم هذا منها تمامًا .. ولكن ماذا أقول لحضرتك يا دكتورة ؟ ماذا أقول ؟

وسقط الطير على رأس الدكتورة ، فلم تستطع أن تحرى جوابًا ، ووجدت نفسها تتبادل نظرة دهشة طاغية مع زوجها ،

ولكنها ماهى إلا لحظة حتى كانت تنظر إلى ابنها قائلة فى اضطراب :

ـ يا ابنى نحن هنا نتكلم عن زوجة ، لا عن فنانة .

وكان جواب الابن وقد بلغه اضطراب أمه :

ـ وهى كزوجة لا يعيبها شىء يا ماما .. وإذا كان على أهلها وبيئتها فهى لم تخترهم .

وجاءه رأى أبيه فى حنو :

ـ ولكنهم موجودون يا ابنى .. حقيقة موجودة .

وكادت الدموع تتفطر من عينى (ميدو) ، وهو يجيبه :

ـ وما ذنبها يابابا ؟ الله وحده هو الذى قدّرهم عليها ، وإذا كان الحل فى تطهيرها من هذا القدر فالله وحده هو القادر على ذلك .

وأطرق الفتى بعينيه المختنقتين بالدموع إلى الأرض ، وأدركت الدكتورة وزوجها أنهما لا يملكان ما يضيفانه ، فما كان من الأم إلا أنها تطلعت إلى ابنها بنظرة أمومة صادقة مُعذّبة ، ثم قالت فى استسلام حزين :

ـ إذن فأنت عازم على زواجك منها يا (ميدو) .

وكان رد (ميدو) فى تمزق :

ـ نعم يا ماما .. سأتزوجها .

ثم أردف بتمزقه المؤلم :

ـ وإذا كانت فى الوردة شوكة ، فليتولها الله .

وهكذا حسم الفتى الأمر ، فلم تملك الدكتورة إلا أن تنهض واقفة ، وقد بدت لأول مرة فى كبرها كطفلة مهزومة مقهورة محطمة ، لا تملك من أمرها شيئًا ، ونهض معها زوجها واقفًا متطلعًا إلى ابنه بنظرة شديدة الأبوة تتفطر أسى وإشفاقًا ، ثم إذا به يدس يده فى جيب سترته ، مستخرجًا مفتاحًا وورقة صغيرة ، ناولهما لـ (ميدو) قائلاً :

ـ شقتك يا (ميدو) فى مساكن (شيراتون) ، والعنوان فى الورقة .

وتعلقت عينا الابن بأبيه فى نظرة طويلة ، قذف بعدها الاثنان بنفسيهما فى حضنى بعضهما ، بينما رفعت الدكتورة يدها ماسحة دمعتها .

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

ياااااه !!

ياااااه من قسوة ساعات الانتظار على عاشق يحمل هدية العمر لحبيبته .. إنها أحر عليه من جمرات النار .. وقد ظل (ميدو) يكتوى بها حتى طلع عليه النهار ، ثم كان عليه أن يصبر لساعتين أو ثلاث أخرى كى يتصل بحبيبته ليبلغها بقدومه .. يشق عليه أن يوقظها مبكرًا ، وخاصة فى نهار « رمضان » .. راح يستحضر آخر ما يملك من صبره وقوة احتماله حتى بلغت الساعة التاسعة ، فأسرع يطلب الحبيبة بالموبايل ، بينما قلبه يكاد يتوقف من عنف وتلاحق دقاته .. ولكن الحبيبة لا تجيب .. يطلب الرقم ، فإذا بالجواب « غير متاح » .. يعاود الكرة والجواب لا يتغير .. ربما أغلقت الموبايل كى لا يقطع رنينه نومها ، وخاصة أنها لا تتوقع مطلقًا أن يطلبها حبيبها فى مثل هذا التوقيت المبكر .. وجد الفتى نفسه يقفز داخل سيارته وينطلق بها صوب «الدويقة» .. إنه يلتهم الأسفلت التهامًا ، حتى إن السيارة كادت تطير به من فوق أحد منحنيات منزل « المقطم » .. لولا ستر الله لطارت به

إلى الآخرة .. ما كاد يبلغ « الأتوستراد » حتى كانت علامات كارثة ما تطالعه على الطريق .. سيارات الطريق تحولت إلى طابور طويل يزحف ببطء شديد .. مستقلو السيارات يتساءلون فى دهشة عما وراء توقف الطريق هكذا .. إنه صباح رمضانى ، المفترض أن الحركة فيه خفيفة جدًا ، وخاصة على طريق مثل «الأتوستراد» .. ماذا هناك ؟! لم يكن أمامهم إلا الاستسلام لهذا الزحف المميت فى بطئه ، حتى يبلغوا بداية الطابور ، ويعرفوا سببه .. وبلغوه ليُفاجأوا بالدنيا مقلوبة رأسًا على عقب .. وليُصدموا بالكارثة ..

سقطت من « المقطم » صخرة هائلة ، دكت ثلاثة شوارع كاملة أسفل الجبل العتيق فى غمضة عين !!

* * *

ووقف (ميدو) يحدّق فى الصخرة الشيطانية الرهيبة بكل جنونه ..

وقف ينادى حبيبته المدفونة تحت الصخرة كى تخرج إليه وتأخذ مفتاح شقتها ..

ثلاثة أيام بلياليها وهو لا يبرح مكانه ولا يكف عن النداء عليها ..

يناديها تارة !!

ويتوسل إليها تارة !!

ويهرع إلى أى مصاب أو جثة يخرجها عمال الإنقاذ والجنود من تحت الأنقاض تارة !!

وتارة يسرع بتساؤلاته الملهوفة إلى جيش المسئولين المحتشدين فوق مسرح الكارثة بكامل أناقتهم ، يدلون بتصريحاتهم هنا وهناك لمختلف وسائل الإعلام فى هدوء وثبات عجيب .. غزارة الكوارث فى البلاد أكسبتهم خبرة مواجهة الكاميرات والميكروفونات لا مواجهة الكوارث ذاتها !!

وهكذا راحت اللحظات تزحف بالفتى مقتربة به من شفا الجنون ، حتى إذا ما بلغه انفجر صارخًا فى حبيبته أن تخرج إليه ، وحتى فوجئ بتصريح أحد المسئولين بأنه لم يعد هناك أحياء تحت الصخرة ، ولتنطلق صرخة (ميدو) المدوية المرعبة وهو يهم بأن ينقض على المسئول ليقتله لولا أن أبويه و (عمرو) و (قمر) سارعوا بالإمساك به .. وبالقوة سحبوه إلى إحدى سياراتهم الواقفة على الطريق .. وهم (عمرو) بأن يدير محركها ، فإذا بموبايل (ميدو) يرن ، ولكن أين هو سمع

(ميدو) ؟ شلَّت وصَمَّت كل حواسه .. ولكن الموبايل يواصل رنينه فى إلحاح استفزازى ، حتى وجدت (قمر) نفسها تأخذه من جيبه لتغلقه فى عصبية .. ولكن .. نظرة غير مقصودة منها على شاشة الموبايل جعلت صرختها تنطلق مدوية :

ـ شيمااااااااء !!!

وكادت المفاجأة تعصف بعقول الجميع .. الدكتورة (لميس الجوهرى) هى الوحيدة التى كان بها ذرة من تماسك .. أسرعت تخطف التليفون من يد (قمر) لتسمع فيه :

ـ أنا (شيماء) يا (ميدو) .. أنا (شيماء) .. الحقنى .. أنا تحت الصخرة .

ولم تدر الدكتورة كيف قفزت من السيارة ، منطلقة جريًا إلى لواء شرطة من الواقفين صارخة فيه :

ـ أنا الدكتورة (لميس الجوهرى) هناك بنت حية تتصل بالموبايل من تحت الأنقاض .

وفى سرعة البرق كانت كل الحشود المتواجدة تتكالب على الأنقاض ، لتظهر (شيماء) فى أقل من نصف ساعة محمولة

فوق نقالة يجرون بها صوب إحدى سيارات الإسعاف ، بينما الفتاة تردد بالدموع لـ (ميدو) الذى يجرى معها هو ووالديه و(عمرو) ، و(قمر) :

ـ أسرتى كلها ماتت يا (ميدو) .. أسرتى كلها ماتت .. حتى (عصفور) مات ..حتى (عصفور) !!

تمت بحمد الله

★ ★ ★

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

صدر من هذه السلسلة:

1 ـ من أجلك .
2 ـ لا تقل وداعًا .
3 ـ قلوب لا تنبض .
4 ـ الدموع الباردة .
5 ـ هى فى حياتى .
6 ـ بالقلب لا تفقد .
7 ـ النبع الجاف .
8 ـ طيور بلا أجنحة .
9 ـ رسالة حب .
10 ـ لعبة القدر .
11 ـ العصفور الجريح .
12 ـ أشجار الحب .
13 ـ رحلة قلب .
14 ـ شمس الليل .
15 ـ الحب بلا أرقام .
16 ـ لقاء الحب .
17 ـ المرآة السوداء .
18 ـ حب وكراهية .
19 ـ وذاب الجليد .
20 ـ حب وسط النيران .
21 ـ دموع كيوبيد .
22 ـ أوهام الحب .
23 ـ نداء قلبى .
24 ـ حذار من الحب .
25 ـ الموعد .
26 ـ وداعًا يا حبى .
27 ـ حبى المعذب .
28 ـ لك قلبى .
29 ـ الحلم .
30 ـ زوجى .
31 ـ الحب والمعجزة .
32 ـ وداعًا للماضى .
33 ـ طائر غريب .
34 ـ هذا الرجل .
35 ـ التقينا من جديد .
36 ـ نسمة الصباح .
37 ـ لن أعود .
38 ـ الشريكان .
39 ـ أنت قدرى .
40 ـ بلا أمل .
41 ـ أحلام ضائعة .
42 ـ أبى الحبيب .
43 ـ الحاجز .
44 ـ لن أنساك .
45 ـ ستبقى فى قلبى .
46 ـ أحببتك فى صمت .
47 ـ رجل وقلبان .
48 ـ الحب الجريح .
49 ـ الحب والاختيار .
50 ـ وابتسمت الحياة .
51 ـ اللقاء الأخير .
52 ـ عودة الغائب .
53 ـ أمواج الحب .
54 ـ معك دائمًا .
55 ـ اغفر لى .
56 ـ لقاء فى الغروب .
57 ـ جدار الماضى .
58 ـ لأنى أحبك .
59 ـ الأسيرة .
60 ـ مرحبًا بالحب .
61 ـ شمعة لا تنطفئ .
62 ـ لا ترحلى .
63 ـ لمسة حب .
64 ـ الصديقتان .
65 ـ الوجه الدميم .
66 ـ خفقات قلب .
67 ـ جراح الماضى .
68 ـ حبيبتى الوحيدة .
69 ـ آلام الحب .
70 ـ كفانا عنادًا .
71 ـ رجل أحببته .
72 ـ نبع الحب .
73 ـ مشاعر دافئة .
74 ـ أشواك الحب .
75 ـ لن أبكى .
76 ـ قلوب حائرة .
77 ـ وداعًا للأبد .
78 ـ فتاة جميلة .
79 ـ قسوة وغفران .
80 ـ ليس من أجلى .
81 ـ سحابة صيف .
82 ـ زهرة برية .
83 ـ زهرتى الجميلة .
84 ـ ابتسامة القدر .
85 ـ لعبة الزمن .
86 ـ شاطئ الأمان .
87 ـ فجر جديد .
88 ـ حب وحرمان .
89 ـ ليل ونهار .
90 ـ سأنتظرك دائمًا .
91 ـ بعد الانتظار .
92 ـ حب بلا موعد .
93 ـ زواج العمر .
94 ـ القرار الصعب .
95 ـ معنى السكوت .
96 ـ يـارا .
97 ـ اغفر يا قلب .
98 ـ الحائرة .
99 ـ ملاك الحب .
100 ـ أزمة منتصف العمر .
101 ـ ورود وأحجار ..
102 ـ النورس الحزين .
103 ـ رحلة الأمواج .
104 ـ أحـــلام .
105 ـ زائرة جنيف .
106 ـ وأخيرًا التقينا !
107 ـ أنين الروح .
108 ـ الوردة البيضاء .
109 ـ قلوب فى الصحراء .
110 ـ أغلى من الحب .
111 ـ دموع السماء .
112 ـ غادة الدويقة .

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

زهور

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



فوزى عوض

غادة الدويقة

لا يـا مامـا من فضـلك ..
لا تقولى هذا .. « الدويقة » قطعة من « مصر » .. حى مصرى مثل أى حى مصرى آخر .. والذين فيه مصريون تماما مثلى ومثل حضرتك ، بل ربما كان من بينهم من هم أشرف من سكان قصور « أخرى » الذين تتباهين بهم .

112

الثمن فى مصر 400
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



